غيبريسوس هايلو

المجنّد

رواية حبشية عن حرب ليبيا ضد الاستعمار

THE CONSCRIPT: A NOVEL OF LIBYA'S ANTICOLONIAL WAR

ترجمة | فرج الترهوني

دار الفرجاني

غيبريسوس هايلو

المجنّد

رواية حبشية عن حرب ليبيا ضد الاستعمار

THE CONSCRIPT: A NOVEL OF LIBYA'S ANTICOLONIAL WAR

ترجمة | فرج الترهوني

دار الفرجاني

المجنّـــــد

غيبريسوس هايلو

ولد Gebreyesus Hailu في عام 1906 في أفيلبا، في المنطقة الجنوبية من إريتريا. في 1924 بدأ دراسته في الكلية الإثيوبية في الفاتيكان، حيث حصل على رخصة الليسانس في عام 1927 وفي عام 1937 حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت. كان نائبًا للكنيسة الكاثوليكية في إريتريا ولعبَ العديد من الأدوار المهمة في الحكومة الإثيوبية – بما في ذلك تقلده منصب الملحق الثقافي في السفارة الإثيوبية في روما، وعضوية الأكاديمية الوطنية للغات، ومستشار وزارة الإعلام في الحكومة الإثيوبية – حتى تقاعده عام 1974. توفي العام 1993.

فرج الترهوني

ولد فى مدينة المرج فى ليبيا عام 1948. تخرج من الأكاديمية البحرية الملكية البريطانية العام 1971، شغل مناصب عديدة في القوات البحرية حتى العام 1999. نُشرت له 9 ترجمات من الآداب العالمية و3 كتب في التاريخ السياسي والعام. يكتب المقالات بصورة دورية فى صحف عدة. من ترجماته رواية (كثبان النمل فى السافانا) لتشنوا أتشيبى و(الحرب فى زمن السلم) لديفيد هالبرستام، و(الشاطئ الرابع) لفرجينيا بايلي.

غيبريسوس هايلو

المجنّد

رواية حبشية

عن حرب ليبيا ضد الاستعمار

ترجمة: فرج الترهوني

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة العربية الأولى 2022

نشرت لأول مرة باللغة التغرينية العام 1950

ترجمت عن الانكليزية

The Conscript - Ohio University Press - 2012

جميع حقوق الترجمة الانكليزية محفوظة لغيرماي نجاش ©

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة لفرج الترهوني ©

ردمك ISBN 9789775490000

رقم الإيداع: 00000 / 2022

9 ميدان الذهبي

منشيه البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مقدمة المؤلف للطبعة التغرينية
بقلم: أ. غي. هايلو

يعكس هذا الكتاب الذي تتم طباعته تحت عنوان «قصة مجند» انطباعاتي عندما سافرت في سن الثامنة عشرة عن طريق البحر إلى إيطاليا طلبا للعلم. ويتعلق الأمر أيضا بذكرى مواطني بلدي، المجندين أو من يسمّون الأسكاري، الذين كانوا يُرسلون إلى الخارج في ذلك الوقت. ولهذا السبب كانت كتابتي حول شاب معيّن، وكذلك فقد منحته الاسم الأصلي الذي أعطي لي في وقت ولادتي. أعتبرُ نفسي شخصًا مباركًا وأشكر ربي على تمكيني من التعبير عن اهتمامات ومشاعر شعبي في تلك السن المبكرة. ولم يكن ممكنا نشر هذا العمل حتى الآن بسبب الصعوبات المادية. أما اليوم، فيتم نشر الكتاب مع القرض الذي تلقيته من جمعية الوحدة الإثيوبية الإريترية. وأعبّر عن امتناني لهم.

هناك أيضًا كتابُ آخر بعنوان «انتحار الإمبراطور تيودروس» والذي كتبته في الفترة نفسها التي عملت فيها على رواية «مجند». وهو يتحدث عن مأساة في ألفٍ وستمائة سطر. وهذا العمل ينتظر اليوم الذي سيشهد فيه النشر. أولئك الذين يتمتعون بالحكمة الكافية للمقارنة سوف يُدركون أن هناك تباينًا ساخرًا وحيويًا بينهما: ففي أحد طرفي الميزان سيرون الشخص الذي يضحي بنفسه من أجل بلاده، وعلى الجانب الآخر الشخص الذي يموت وهو يخوض حروب الآخرين في بلاد أجنبية.

مقدمة الترجمة الانكليزية

بقلم: غيرماي نجاش*

هذه هي الترجمةُ الكاملة الأولى لرواية «المجنّد» إلى اللغة الإنكليزية أو إلى أي لغة أخرى. ومنذ عام 1995 عندما قرأت الرواية لأول مرة تولدت لديّ رغبة قوية لترجمتها كتقدير منّي واحتفاءً بحيوية الأدب الأفريقي. لكن أكثر من مجرد هذه الحفاوة، فإن قراري بإتاحة الرواية للترجمة كان مستوحىً من رغبتي في مشاركة هذه القصة الرائعة عن المعاناة الإنسانية والشجاعة الأخلاقية مع أفراد أسرتي وأصدقائي وزملائي في مجال دراسات الأدب الأفريقي والعالمي، الذين شجعوني في عدة مناسبات على ترجمة هذا الكتاب.

تُعتبر «المجند» رواية معقدة للغاية في اهتماماتها المواضيعية (تيماتها) وفي شكلها أيضا. أيضا تكمن أهميتها في حياة

مؤلفها، غبريسوس هايلو، الذي وُلد في قرية صغيرة في إريتريا في أوائل القرن العشرين، والذي ترقّى ليصبح صوتًا أدبيًا وعامًا بارزًا. ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في مناقشة طويلة للكتاب أو لتقديم سيرة موسّعة للروائي. وسأكتفي هنا بعرض بعض الملاحظات حول مواضيع ولغة الرواية. وتقديم لمحة موجزة عن مؤلفها؛ وبعض التأملات حول الكيفية التي تنخرط فيها الرواية التي وُضعت على حدود الحداثة والتقاليد، وكلاهما يتعلقان بأعمال تتناقلها الحكايات لتاريخ التجنيد الإريتري وتعيد النظر فيها؛ وكذلك مشاركتي الخاصة مع النص كمترجم. وآمل أن تعزز المعلومات المقدمة من تقدير القراء للرواية. وسأبدأ بتقديم وصف موجز للمؤلف.

ولد Gebreyesus Hailu في عام 1906 في أفيلبا، في المنطقة الجنوبية من إريتريا. في سن مبكرة تعلم القراءة والكتابة. والتحق بمدرسة سان ميشيل في سيغينيتي، وفي عام 1923 بدأ تعليمه في المدرسة الكاثوليكية في كيرين. ثم في 1924 بدأ دراسته في الكلية الإثيوبية في الفاتيكان، حيث حصل على رخصة الليسانس في عام 1927 لينهي البرنامج في ثلاث سنوات بدلاً من الخمس القياسية. ثم شرع هايلو في الحصول على درجات متقدمة في الفلسفة واللاهوت، وفي عام 1937 حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت وكتب أطروحته باللاتينية. عند عودته إلى إريتريا، أصبح هايلو شخصية مؤثرة في الحياة الثقافية والفكرية لإريتريا خلال الفترة الاستعمارية الإيطالية، في كل من إريتريا وإثيوبيا في حقبة ما بعد إيطاليا. كان نائبًا للكنيسة الكاثوليكية في إريتريا ولعب العديد من الأدوار المهمة في الحكومة الإثيوبية – بما في ذلك تقلده منصب الملحق الثقافي في السفارة الإثيوبية في روما، وعضوية الأكاديمية الوطنية للغات، ومستشار وزارة الإعلام في الحكومة الإثيوبية – حتى تقاعده عام 1974. إلى أن توفي عام 1993.

هذه الرواية الكلاسيكية التي كتبها هايلو، والتي نالت تقدير قرائها الإريتريين الذين رأوا أنها بليغة ومثيرة للتفكير، كتبت في عام 1927 ونشرت في العام 1950. على الرغم من أن النثر الخيالي والقصصي في اللغة الإريترية يسبقها، فإن «المجند» هي الرواية الأولى في التاريخ الأدبي لإريتريا وواحدةٌ من أقدم الروايات المكتوبة بلغة أفريقية (التغرينية). ويصوّر الكتاب، بسخرية وغضب منضبط، التجارب المذهلة للأسكري الإريتري، وهم الأفراد الذين جندهم الجيش الاستعماري الإيطالي للقتال في ليبيا ضد المقاومة الليبية التي تقاتل من أجل انتزاع حريتها من الحكم الاستعماري الإيطالي. وكما لاحظت لورا كريسمان، بعمق في مقدمة هذه الطبعة فإن هايلو، وبالمقارنة مع مفكرين في منتصف القرن مثل فرانز فانون، وإيمي سيزير، يرسم صورة مدمّرة للاستعمار الإيطالي. وتتضمن بعض المقاطع الأكثر تأثيرًا في الرواية يقظة بطل الرواية إلى مأزقه الساخر كونه واقعٌ تحت الحكم الاستعماري وفي الوقت نفسه فهو أداة قمع لليبيين المستعمَرين.

لغة الرواية المعبرة متميزة تمامًا مثل جودة تيماتها. وما يثير المشاعر فيها بشكل خاص هو توصيفها لليبيا. هذه المقاطع تبهر القارئ بصور متعددة ساحرة، ومزعجة أيضا كما تقدم وُصفا للمناظر الطبيعية الليبية بمناطقها الصحراوية الشاسعة وواحاتها وفرسانها وجنودها ووحشيتها في زمن الحرب. (كما سيجد القارئ، أنه من الغريب كيف ترتبط هذه المناظر بصورِ الأقمار الاصطناعية التي تم نقلها إلى منازل ملايين المشاهدين حول العالم في عام 2011، خلال انتفاضة البلاد ضد زعيمها السابق، العقيد القذافي.)

جانب أساسي آخر من اهتمام الرواية هو ارتباطها بالتراث الشفوي أو المحكي كما لاحظ (هارولد شوب) ذات مرة، ما يعكس استنتاج العديد من علماء الدراسات الأفريقية: «بأن هناك استمرارية غير متقطعة في الفن الشفاهي الأفريقي تنتج من تفاعل الأنماط الشفوية المختلفة وتحوّلها إلى منتجات أدبية مثل الرواية والشعر.» وهذه «الاستمرارية غير المنقطعة» تتجلى بشكل أفضل في استخدام هايلو للّغة والأسلوب اللذين خصصها لبناء روايته. فاللغة تتميز بالشعريّة، كما هي مجازية، وغنية بالأمثال. يستخدم هايل أيضًا الشعر (المحكي) بشكل فعال، والذي يقلد إحدى وظائفه العديدة في التقاليد الشفوية للغة التغرينية، ويتبناه مرارًا في الرواية لتحديد أزمةٍ أو تحولٍ ما يمرّ بهما بطل الرواية. على مستوى الجملة أيضا تستخدمُ لغة هايلو بشكل متكرر الخصائص الشعرية للتكرار والتوازي. وترتبط جميع هذه الميزات، في المقام الأول ولكن ليس حصريًا، بفن التقليد الشفهي. بالإضافة إلى ذلك، وفي حين أن قصة الرواية تتقدم بشكل طولي بمرور الوقت، فإن سرد هايلو يمضي بتقنية استرجاعية تقليدية في الرواية، والتي تمكّن هايلو بعد ذلك من بناء الرواية بشكل دائري. في الواقع، ولأن لغة التكرار والتوازي والبنية الدائرية للرواية متشابكة للغاية، فإن البنية السردية لـ«المجند» تعكس (أو تتدفق من) اللغة الشعرية لعملية التكرار والتوازي. وتفاعل هايلو مع التراث الشفهي واضح أيضًا في المحتوى التيمي للكتاب. بينما

كرواية؛ تعتبر «المجند» جزءًا من نوع أدبي حداثي في التاريخ الأدبي للغة التغرينية، فالقصة التي ترويها، والصور والذاكرة التي تستحضرها، والأغاني التي تعيد إنتاجها متجذرةٌ بعمقٍ في التراث الشفهي، وبالتالي في الوعي الجمعي لشعب إريتريا. فحتّى اليوم تنتقل مثل هذه القصص كجزء من التراث الشفاهي من جيل إلى جيل على شكل إصدارات وأداءات

مختلفة. وعلى الرغم من أن الحرب الليبية الموصوفة في الرواية وقعت منذ قرن أو ما يقرب من ذلك، فإن العديد من العائلات في إريتريا ما تزال تروي قصص الآباء أو الأجداد أو الأقارب الآخرين الذين تم تجنيدهم في الحملة العسكرية الإيطالية في ليبيا. وهناك أيضًا قصصٌ مماثلة للتجنيد تتعلق بالعدوان الاستعماري الإيطالي على إثيوبيا من عام 1935 إلى عام 1941. حيث استخدمت إيطاليا المجندين الإريتريين على مدى فترة طويلة من الزمن للخدمة في مناطق جغرافية مختلفة. وهكذا كان هناك جيلان من المجندين. حيث أرسِل الجيل الأول للقتال في ليبيا والصومال من عام 1910 إلى عام 1930 تقريبًا؛ وحارب الجيل الثاني في وقت لاحق في إثيوبيا.

كان عدد الإريتريين الذين خدموا في الحملات الليبية والإثيوبية مرتفعًا بشكل لافت، مقارنة بالسكان الإريتريين الذين بلغ عددهم نحو 600.000 في عام 1935. وفي ذلك كتب Uoldelul Chelati: «على الرغم من أنه في الواقع وغالبًا لم تكن تلك الكتائب [المجندة] مكونة حصريًا من الإريتريين ولكنها شملت أيضا جنودًا من دول مجاورة، وخاصة إثيوبيا والسودان» ، تشير التقديرات إلى أن «ما يقرب من 130.000 إريتري خدموا في الجيش الاستعماري الإيطالي بين عامي 1890 و1935 ووصلوا إلى العدد الأقصى وهو 60.000 تقريبًا خلال غزو حملة غزو إثيوبيا عام 1935.» وخلال طفولتي وحياتي البالغة في إريتريا، سمعت العديد من القصص حول كلا الجيلين من المجندين، وأحيانًا نت قصصٌ يرويها المحاربون القدماء أنفسهم. وقد روى والدي قصصًا عن تجربته كمجند في حملة إيطاليا ضد إثيوبيا (في ي 1935-1941)، حيث انتهى به الأمر كسجين حرب بعد استسلام الإيطاليين للبريطانيين في غوندار، بإثيوبيا. وبعد فترة طويلة من الزمن، روت جدتي أيضًا قصصًا عن شقيقها وأصدقائه، الذين مروا بتجربة حرب مؤلمة في الحرب الليبية السابقة لغزو إثيوبيا. وعلى الرغم من أهميتها التاريخية والثقافية الأساسية، إلا أن الحكايات الشفاهية للتجنيد التي تم تداولها في الثقافة الإريترية تميل إلى تسليط الضوء على بعض سمات تاريخ التجنيد الإجباري، مع التستّر على جوانب مهمة أخرى من التجربة.

وتعمل رواية «المجند» على تعقيد تلك القصص، مستحضرة ذاكرة تاريخية وثقافية تُظهر صورة معقدة لتجربة التجنيد الإجباري على مستويات مختلفة. وفي «المجند» يقدّم هايلو رأيا مقابلا لتصحيح التصورات الإريترية المحلية التي إمّا أنها تحتفل بالمجندين كأبطال أو ترفضهم على أنهم مغفلين. ووضْع توكوابو، على أنه البطل المركزي للرواية الذي يثور ضد الاستعمار ويحكي القصة غير المروية لأولئك المجندين الذين قاوموا الاستعمار الإيطالي لكنهم أجبِروا على القتال في صفه. على الرغم من أن هايلو يخلق شخصية مركزية منشقة لفضح شرور الاستعمار الأوروبي في القارة الأفريقية، فإن اعترافه المتزامن بوجود تواطؤ أفريقي – واضح للغاية في الرواية – يظهر الواقع المأساوي الذي وجد فيه الأفريقي المستعمَر نفسه تحت الاستعمار.

في نهاية المطاف، فهذا الفهم والتحليل العميقان لشرور الاستعمار– أي إساءة استخدام المستعمِر– هو الذي يجعل رواية «المجند» عملا متميزًا ومهمًا في عالم الأدب الأفريقي. على المنوال نفسه، فإن الجرأة الأخلاقية غير الاعتذارية للتعبير عن الحقيقة للسلطة الاستعمارية هي التي تحدُ عبقرية هايلو باعتباره واحدا من أقدم الأصوات الأدبية في الأدب الأفريقي.

وكملاحظة أخيرة، اسمحوا لي أيضًا أن أقول بضع كلمات حول عملية الترجمة.

كان المشروع في ذهني لفترة طويلة. على الرغم من أنني عملت عليه بشكل متقطع في السنوات السابقة، فقد اكتملت هذه الترجمة خلال فترة عمل مكثفة لمدة ثمانية أسابيع في أشهر الشتاء من نوفمبر إلى ديسمبر 2010. العمل على المسودة الأولى للترجمة من المجند (والعديد من المراجعات اللاحقة) كان مثيرا بقدر ما كان معقدا. لقد أمضيت ساعات طويلة في التفكير في النص وترجمته ومراجعته وتحريره. بالإضافة إلى المتعة المرتبطة بإيجاد الكلمات والتعابير والنحو (الصحيحة)، وكلها حاسمة في نقل المعنى من لغة إلى أخرى، كما ساعدتني الترجمة أيضًا على فهمٍ أفضل لكيفية ربط نص هايلو معًا عن طريق البراعة والرقة اللغوية اللفظية والهيكلية على حد سواء، وبصوت محاكاة ساخرة، وهو صوت منتشر في كلّ النص، وهو كذلك صوت يعبّر عنه هايلو في بداية الكتاب عندما يتحدث في مقدمته «التباين الساخر». وفي هذه الترجمة، كان جهدي يتمثل في تقديم شكلٍ ومعنى وصوت أصيل للتغرينية الأصلية في النص الإنكليزي.

آملُ أن تُنصفَ هذه الترجمة عمل هايلو الاستثنائي، وتصل الآن إلى جمهور قرائه باللغة الإنكليزية، بعد أكثر من نصف قرن منذ نشرها لأول مرة في التغرينية. وأخيرًا، أود أن أعترف بالحب والدعم غير المشروطين من عائلتي طوال عملية الترجمة. كما أتوجه بالشكر الجزيل لأصدقائي وزملائي ستيف هوارد، وجيري ليبشولتز، وألمسيجيد تسفاي، وتشارلز كانتالوبو، ومساعدتي البحثية إليزابيث ستوري، التي قرأت وأعطتني ملاحظات قيمة حول المخطوطة. أنا ممتن للغاية لأعضاء هيئة التحرير في مطبعة جامعة أوهايو على دعمهم للمخطوطة ولإنتاجهم المتحمس للكتاب.

هذا الكتاب مُهدى لوالدتي (واهيد) التي لطالما رأيت الحكمة في كل شيء، ووالدي (نيغاش) الذي رأى الفكاهة في كل شيء.

---

* غيرماي نجاش: أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب الأفريقي بقسم اللغة الإنجليزية ومدير برنامج الدراسات الأفريقية بجامعة أوهايو ومؤسس قسم اللغات والآداب الإريترية بجامعة أسمرة.

تقديم

بقلم: لورا كريسمان*

حتى وقت قريب، كان يُنظر على نطاق واسع إلى رواية النيجيري تشنوا أشيبي (الأشياء تتداعي) Things Fall Apart كأول رواية أفريقية رئيسية، مع أدوارٍ داعمة أعطيت لأعمال أفريقية أخرى من الخمسينيات من قبل روائيين من أمثال كاميرا ليي، ومونغو بيتي، وأموس توتولا، وفرديناند أويونو. وكان للتبجيل الذي ناله عمل أتشيبي النيجيري عام 1958 والمكتوب باللغة الإنكليزية ونشرته دار هاينمان، عواقب وخيمة كثيرة. أحدها كان الارتباط الوثيق بين جماليات النص والعمليات الأخرى. وعزز نشرُ رواية أتشيبي خلال استقلال نيجيريا الحديث عن الحكم البريطاني الرأي القائل بأن الأدب الأفريقي لم يتحقق بشكل صحيح إلاّ في فترة ما بعد الاستعمار. كما أقر تطويب رواية أتشيبي باللغات الأوروبية باعتبارها الوسيلة التي لا جدال فيها لبروز الأدب الأفريقي. وعلى مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، بدأ المختصون في مراجعة رئيسة للتاريخ الأدبي الأفريقي. إنّ الافتراض القائل بأن الخيال الإفريقي بدأ بشكلٍ حقيقيّ في فترة ما بعد حرب التحرّر من الاستعمار أفسح المجال أمام تنظيم أقل، ولكن أكثر دقة من الناحية التاريخية، بمفهوم أنه في إفريقيا، كما الحالُ في أجزاء أخرى من العالم الإمبراطوري الأوروبي، انخرط الكتّابُ المستعمَرون في إنتاج رواية مهمّة وأصليّة قبل وقت طويل من نجاح بلدانهم في النضال من أجل تقرير المصير. ويُنظر إلى رواية «الأشياء تتداعى» على نحوٍ متزايد الآن بأنها تدشينٌ لإضفاء الطابع المؤسسي على الأدب الأفريقي في العالمين الأوروبي والأميركي، بدلاً من تدشين المجال الأدبي نفسه.

ويسعى مختصو الآداب والناشرون بنشاط إلى توسيع الأرشيف الذي يفرضه هذا التاريخ الأدبي الجديد. على سبيل المثال، فهم يكتشفون ويعيدون طباعة النصوص الأفريقية من القرن التاسع عشر لكتّاب مثل جوزيف والترز، في رواية «غوزانيا باو» ورواية ماريشا أو «حماقة الحب» بواسطة كاتب مجهول. كما يرافق نموّ هذا الأرشيف من الأدب الأفريقي نموّ البحث المفاهيمي والنظري. وبطرق متعددة فإن المفكرين المناهضين للاستعمار، وما بعد فترة الاستعمار من «فرانز فانون» إلى «هومي ك. بهاها» أثاروا الافتراضات الحاسمة بأن الإمبريالية باعتبارها فضاءً أيديولوجيًا/وثقافيا، قد مارست سيطرة كاملة تقريبًا على الآفاق المعرفية للنخب والكتاب والمثقفين المستعمَرين. وقد أفسح ذلك المجال إلى الخروج بتحليلٍ جديد يمنح المزيد من الفاعلية لروايات الكتّاب المستعمَرين، ويعطي المزيد من التنوع لتشكيلاتهم الثقافية والسياسية وما يتعلق بمسألة الهُوية. وإدراكًا منهم بأن هذه التطورات لم تحدث فقط من خلال المحور المتروبوليتاني الإمبراطوري ولكن أيضًا من خلال التدفقات الأفقية إلى مجتمعات مستعمَرة أخرى خاضعة للعنصرية، فقد أعاد العلماء والباحثون تقييم طبيعة الهويات العابرة – للوطنية نفسها. وفي الوقت نفسه، يعيد العلماء الآن النظر في الفضاءات المتاحة داخل الدولة المستعمَرة نفسها.

وعلى وجه الخصوص، فإنهم يعطون تدقيقًا جديدًا للعلاقات الأيديولوجية والمادية بين ممارسات الكتابة الأفريقية المبكرة والبعثات الأوروبية.

إذا كانت الدراسات الأدبية الإفريقية توسّع بسرعة من رؤيتها التاريخية والمفاهيمية، فإن وتيرة التوسّع اللغوي في هذا المجال كانت بطيئة نسبيًا، على الرغم من حجة الروائي الكيني «نغويغي واثيونغو» المستمرة والقوية على مدار الثلاثين عامًا الماضية ودعوته للمؤلفين والنقاد لإعطاء الأولوية للكتابة باللغات الوطنية الأفريقية. لكن الآداب الناطقة بالإنكليزية والفرنكوفونية تستمر في الاستحواذ على اهتمام العلماء، على الأقل داخل الفضاء الأدبي الغربي. ومع ذلك، هناك اعترافٌ مؤسسي متزايد بالأدب الناطق باللغتين البرتغالية والإسبانية في بلدان أنغولا وموزمبيق وغينيا الاستوائية (وإلى حد ما، الأدب الأفريكاني في جنوب إفريقيا). وباستثناء المترجمين المثابرين والمتخصصين، لا تزال آدابُ اللغات الأفريقية مُتجاهَلة إلى حد كبير باعتبارها التعبيرات الثقافية الرئيسية كما هي عن القارة.

لهذه الأسباب، فإن نشر «المجند»، وهي رواية هايلو الكبرى باللغة التغرينية، قد حدث في الوقت المناسب. وتساعد ترجمته إلى اللغة الإنكليزية على قلبِ التحيّز الأوروبي المتواصل ضد الدراسات الأدبية الأفريقية كما تساهم في التوسع المستمر للأرشيف التاريخي للأدب الأفريقي.

كُتبت الرواية عام 1927 وهو عقدٌ شهد نشر روايات أوروبية وأفريقية رئيسة (بالإضافة إلى الشعر). لقد كان المؤلفون من جنوب إفريقيا نشطين بشكل خاص، حيث أنتجوا روايات أنغلوفونية مثل رواية Mhudi العام 1930 للكاتب سول بلاتجي، ورواية آر آر دولمو في 1929 بعنوان «تراجيديا أفريقية»، بالإضافة إلى رواية تشاكا لتوماس امفولو عام 1929 وكذلك رواية الزولو في العام 1930 للكاتب جكي شاكا بعنوان «خادم الجسم». ومن بين هؤلاء الأربعة، يمكن اعتبار أن دولمو فقط هو من يضع بيئة معاصرة لروايته؛ أما الروايات الثلاثة الأخرى فهي تاريخية وُضعت في أوائل القرن التاسع عشر. وبالمقارنة، يُعدّ عمل هايلو، مذهلا بسبب موقفه المناهض للاستعمار بشكل علني، وأسلوبه الحداثي وموضوعه الكوني، واستخدام إيطاليا للجنود الإريتريين في حربها للسيطرة على ليبيا.

يرسم هايلو صورة مدمِّرة للاستعمار الأوروبي. وبالإضافة إلى فضح عمليات الهيمنة الأجنبية، فإنه يتصدى لعقبات التحرير التي يتحملها الإريتريون الواقعون تحت الهيمنة الاستعمارية هم أنفسهم، ويسلط الضوء على الصدام المادي والموضوعي مع ما يتعرضون له من استغلال. وفي الوقت نفسه الذي يطوّر فيه هذا النقد، يحتفي هايلو، بإمكانية بروز الوعي المقاوم، الذي يرى أنه موجود بالفعل، وإن في بدايات تخلّقه في التكوينات الاجتماعية والثقافية والروحية الإريترية القائمة آنذاك.

رؤية هايلو للاستعمار تقترب من رؤية مفكري منتصف القرن العشرين «فرانز فانون» و «إيمي سيزير» فمثلُهم لا يهتم هايلو كثيرا بالتاريخ الإمبريالي أكثر من اهتمامه بالتعبيرات المعاصرة. أيضا فالإمبراطورية الإيطالية هي في وسائل الإعلام، مثل البطل «توكوابو» نفسه في بداية الرواية، فتفاصيل كيف جاءت إيطاليا لاستعمار إريتريا وإعلان الحرب على

ليبيا غير مهمة للحبكة؛ وبدلاً من ذلك، يلاحظ هايلو ببساطة، «كان هذا وقتٌ تدور فيه حربٌ في طرابلس، واعتُبر من المناسب لأهل الحبشة أن يكونوا على استعداد لإراقة دمائهم في هذه الحرب». وهذا البناء السلبي في النصّ مثيرٌ للاهتمام. فالوكالة الإيطالية مفقودة هنا، ويصبح هذا الغياب أكثر وضوحًا عندما تقول الجملة التالية، كان الشباب يغنون: «لا يرفض الذهاب إلى ليبيا إلاّ النساء.» وينشد الصغارُ مُطلقين كلماتهم المسمومة: «عودوا إلينا لاحقًا... يا طرابلس امنحينا بعض الوقت حتى نشبّ عن الطوق». وهكذا يختار هايلو، التأكيد على أن يُظهر أنشطة الشباب والأطفال الإريتريين المساندة للحرب، وكذلك شيوخ أهل الحبشة وكبارها الذين يصلّون من أجل الالتحاق بالحرب على أساس أنّ التمرين قد يساعد في إصلاح أجسامهم المترهلة. (بعد مرور ستين عامًا، وفي رواية Sozaboy لـكين سارو ويوا، يتأثر قرارُ سوزابوي بالمشاركة في الحرب الأهلية النيجيرية بشعارات ودعاوٍ يطلقها الرجال المحليون الذين يروّجون لمواصفات معيّنة من إظهار الذكورة.

وأيضا مثل فانون، وسيزير، يختارُ هايلو أن يسلّط الضوء على السيطرة الاستعمارية ويجرّدها من الإنسانية. حيث يؤكّد سيزير على تجريد الجناة الأوروبيين من إنسانيتهم حين يقول: «المستعمِر الذي من أجل إراحة ضميره يعتاد على رؤية الآخر كحيوان، يعوّد نفسه على معاملته كحيوان، وبشكل موضوعي أيضا يميل إلى تحويل نفسه إلى حيوان». لكن هايلو، يرى هذه المعادلة من خلال عرض كل من المستعمِر والمستعمَر كحيوانات. ففي الفصل 2 بينما يستعدُّ عساكر الأحباش لركوب القطار الذي سيأخذهم إلى الحرب، تقوم الشرطة العسكرية بضرب الحشود «بسوط (نعم، بسوط مثل الحمير)». وكذلك فعربات القطار، هذه الآلات الإمبراطورية، هي التي يتم تحريكها بشكل واضح حين يقول: «الشاحنات السوداء التي جاءت هادرة مثل أسودٍ جائعة تستعدّ لابتلاع أبناء الحبشة في بطونها الوحشية». وبعد أن خاض الجنود المعركة وقاموا بحماية الإيطاليين ومنع المجندين العطشى الآخرين مثلهم من الوصول إلى الماء، فهم في تقدير الراوي يشبهون «الكلاب» الذليلة، وكان الأمرُ أشبه بمشاهدة كلبٍ ترتفع عيناه وتنخفضان مع حركة يدِ شخصٍ يأكل أمامه. لكنهم أقل منزلة حتى من الكلاب في تقدير الجنرال الإيطالي الذي يتخلى عنهم في الصحراء الليبية، خوفا من انقلابهم عليه وقتله: لكن بالنسبة للإيطالي فالحبشيّ مثل حمار ضعيف، لا يمكنك ذبحه من أجل لحمه أو جلده، وبالتالي تتركه ليموت في الميدان حسب مشيئة الله. وهكذا هرب الإيطاليُّ الجبان الذي اكتسب شرفه وشهرته بفضل شباب الحبشة، عندما علم أنهم غاية في الضعف وموتهم مؤكد من العطش.

عندما يعود عددٌ قليل من الناجين إلى إريتريا بالقطار، فالحشد نفسه الذي تجمّع لتوديعهم يتجمعون الآن للترحيب بهم، حيث يعانون مرة أخرى من الضرب من قبل موظفي وحراس المحطة. وبحلول ذلك الوقت، يشبّهُ هايلو الحشدَ نفسه بالحيوانات: «بعد فترة، خرج المجندون واصطفوا على أحد جانبي القطار وعندها انكفأ عليهم الحشد الذي بدا مثل قطيع من الغنم أو الماعز الراكض لإحضار صغاره فيصطدم ويضرب أي شيء في طريقه، بينما الحملان تئنّ وتقفز للعثور على أمهاتها». ساد المكان ضجيج، وفوضى، ودموع، ومناداة على الأسماء من جميع الجهات حيث يتدافع الناس للعثور على أحبائهم. وبينما الذين تمّ لمّ شملهم يتعانقون ويقبّلون بعضهم، تدافع آخرون في بحث يائس عن أحبتهم. فالاستعمار يخلق

الفوضى اللامتناهية بين المستعمَرين. ويستخدم هايلو الألقاب الحيوانية هنا من أجل التأكيد على فقدان الجماعية والرابطة البشرية، والتي هي أيضًا خسارة للمجتمع الإريتري الوطني والمحلي. وتظهر النتيجة المدمرة للذات لهذا التجريد من الإنسانية مرارًا وتكرارًا من خلال التدافع الذي يظهر في المشهد الأول لمحطة القطار، والأكثر عنفًا لذلك الذي جرى في الصحراء الليبية عندما يكتشف الجنود اليائسون المياه ويتدافعون حولها.

ومع ذلك، لا هذا التشتيت ولا التواطؤ يحددان بالكامل وضع الشعب الإريتري تحت الحكم الإيطالي. فهايلو يمثّل المقاومة على أنها ناشئة بالتزامن مع الحرب نفسها. وإذا كان الإريتريون قد أذعنوا بشكل سلبي للاستعمار الإيطالي لبلادهم، فإن تصدير مقاتليهم إلى العالم كوقودٍ للمدافِع يثير معارضة تستمد قوتها من التكوينات الاجتماعية والثقافية السائدة لديهم منذ مدة طويلة. يعترضُ والدا توكوابو على قراره بالانخراط في الجندية، ويريان فيه تمزيقا للروابط العائلية المقدسة: «سنشعرُ بَعدك باليتم. فلماذا ترغب في القتال من أجل الأجانب؟ ما الفائدة لك ولشعبك في أن تحمل السلاح وتقاتل في الخارج؟» ويُضاعفُ أفراد مجتمعه هذا اللوم من خلال شتمهِ لخيانته لهذا العقد العائلي الاجتماعي: «يا لهُ من ولدٍ قاس! كيف يمكن أن يترك والديه المسنين وراءه؟» وهناك سوابق ملموسة لوعي العساكر: يقال أن الأحباش» فخورون بتاريخهم وأرضهم، . . . [و] لديهم تاريخ طويل من المقاومة»

في حد ذاتها فإن مصادر الشجاعة القتالية التاريخية، والفخر الوطني، والارتباط بالطائفة، قد تكون ضرورية، لكنها ليست كافية لمواجهة الإمبراطورية الإيطالية بنجاح. ويرى هايلو أنّ هذه الصفات تنتمي إلى روحٍ وعصرٍ لا يتّسق مع العنف الذي يمارسه الاستعمار الحديث، وأن تجربة ساحة المعركة فقط هي التي يمكن أن تولّد جدليةً ووعيًا مناهضًا للاستعمار بما يكفي لترجمته، إلى ممارسةٍ للتحرر. ويبدأ هذا الوعيُ المقاومُ الحديثُ في شكل «صوتٍ داخلي مجهول» وغامض يظهر عندما أقام المجندون معسكرًا في الصحراء الليبية لأول مرة، وكانوا يحاولون النوم، فيحذّرهم الصوت الداخلي من أن: «العرب* ليسوا أعداءكم، فهل ستكونون قادرين على التعرف على عدوّكم الحقيقي؟» ولا يستغرق الأمر وقتًا طويلا بعد ذلك حتى يصل الجنود مثل توكوابو إلى فهم أشمل يعتمد على هذا الإرشاد. هذا الصوت المجهول هو جهاز أصليّ مثير للفضول يقوم من خلاله هايلو بتجميع علمِ النفس المعاصر مقرونا بوضعٍ أكثر قِدما من الشفاعة الإلهية.

وبالمثل فالتكوينات الاجتماعية والثقافية الوطنية التي يستدعيها هايلو تشمل تجمّعا من إيحاءات تقدمية وأخرى رجعية. ومن بين هذه الأخيرة، يشير هايلو إلى كرهِ الأجانب والتحيّز ضد اللون الأسود .كما هو موجّه ضد السودانيين. وبشكل انتقائيّ اعتمد هايلو على العناصر التقدمية بينما رفض بعضها، وهي ممارسة أوصى بها وأسس نظريتها الناشط المناهض للاستعمار أميلكار كابرال، في خطابات مثل «التحرير الوطني والثقافة». وهو يفعل ذلك لإفساح المجال أمام مجتمع سياسيّ أفريقي متعدد الأعراق والأديان يقوم على التفاهم الإنساني العالمي والمعارضة المشتركة للإمبراطورية الأوروبية. حيث يتطور هذا المفهوم بشكل جدلي خلال الرواية، عندما يسافر الجنود عبر إريتريا بالقطار على طول البحر الأحمر، ثم بالسفينة في البحر المتوسط ، ثم سيرًا على الأقدام عبر الصحراء الليبية. إذن، فرؤية هايلو هي وطنية وعالمية في آن معا،

وهي بذلك تؤكّد الجدل الراديكالي حول ترابطهما المتبادل، وأن بناء أمته... سيؤدي بالضرورة إلى اكتشاف القيم العالمية والنهوض بها. وهذا هو التحرر الوطني الذي يضع الأمة على مسرح التاريخ. وفي صميم الوعي الوطني، يُثبت الوعيُ العالمي نفسه ويزدهر من خلاله. وهذا الظهور المزدوج في الواقع، هو التركيز الفريد على جميع الثقافات. فبعد مرور ثلاثين عامًا، وبالكتابة من بيئة أكاديمية مناهضة للقومية، يردّد إدوارد سعيد، في كتابه «الثقافة والإمبريالية هذا التحليل: «هناك ...توجّهٌ فكريّ ثابت داخل الإجماع القومي الذي يُعتبر بالغ الحيوية، والذي يرفض التهدئة قصيرة المدى للانفصاليين وللشعارات المنتصرة لصالح الحقائق الإنسانية الأكبر والأكثر سخاء للمجتمع بين الثقافات والشعوب والمجتمعات الأخرى. هذا المجتمع هو التحرر البشري الحقيقي الذي تُعلنه المقاومة للإمبريالية».

تمثيل هايلو للأمّة يتداخل كما يبتعد عن تحليل «بيندكت أندرسون» المؤثر عام 1983 للقومية والمجتمعات المُتخيلة. فعن المجندين يكتب هايلو أنّ، «جميعهم، وبشكل متزامن كانوا يفكرون بوطنهم في الوقت نفسه.» أثناء سفرهم على متن السفينة؛ وعندما استيقظوا في اليوم التالي كانت الأرض ما تزال مرئية، «ما جعلهم سعداء على الرغم من أنهم لم يعرفوا المكان. فقد كانت قطعة أرض شاسعة مرتبطة ببلدهم وشكلت جزءًا منه» هذا الاستحضار المتزامن والارتباط بمساحة مشتركة تتجاوز المنطقة المعروفة يتوافق إلى حد ما مع نظرة أندرسون للأمة على أنها: «شيء مُتخيلٌ لأن مواطني حتى أصغر دولة لن يعرفوا أبداً معظم مواطنيهم الآخرين أو يلتقونهم أو حتى يسمعون منهم، ومع ذلك تعيش في أذهانهم صورة شراكتهم في الوطن» ولكن بدلاً من البشر غير المعروفين، فإن الأرض المجهولة نفسها هي التي توفر الأساس لشراكتهم وهويتهم المتخيلتين. عندما يتعلق الأمرُ بالبشر الذين يتشاركون في هذه المساحة، فإن هايلو يقدّم خصوصية معيّنة، وليس تعميما مجردا: «الذين لديهم آباء وأخوة والذين لديهم زوجات وأطفال كانوا غارقين في ذكرياتهم. أما الذين لم يتركوا وراءهم عائلات فقد فكروا في أصدقائهم أو في الأشخاص المقربين منهم. لكن كلهم كانوا يفكرون في بلدهم في الوقت نفسه « هذه الكتلة المادية المتشارِكة من الأرض تتوسط الشبكات البشرية غير المتجانسة وإنْ في جدليةٍ غائبة عند أندرسون. ومن بين هذه الشبكات، تجدرُ الإشارة إلى أن رواية هايلو تتميز باستمرار بمجموعة متنوعة من العلاقات العاطفية الأساسية. علاقة البطل الأساسي توكوابو مع والديه. وبالنسبة للمرأة المفجوعة التي تظهر في نهاية الكتاب، فإن قريبها الذي تنوح عليه هو شقيقها المتوفى. ولا يمنح هايلو في أي وقت مساحة لعلاقات رومانسية أو زوجية ذات أهمية اجتماعية أو أخلاقية عالية، ولا يدعو إلى تفرقة صارمة بين الجنسين وإنما يمكن القول إن منهجه يفصل بين مشاريع الأبوية (الهيراركية) والقومية وينتقد نسخة الذكورة التي تدفع توكوابو للقتال، وهناك القليل من الدعم في الرواية للنظر إلى الأمّة من خلال العدسة الإيديولوجية للتكاثر بين الجنسين، وهي وجهة نظر انتقدتها النسويّة لتقليصها دور النساء إلى ناسخات بيولوجيات وناشرات للثقافات، أو حتى كتجريد رمزي للأمة.

إذا كانت الأرض تتوسط الهوية الوطنية بالنسبة إلى هايلو، فإن البحر (بعون الله) يتوسط الهوية العالمية. منطقُ الرواية معقّد للغاية بحيث لا يمكن مناقشته بالتفصيل هنا. فهي تنطوي على التأطير الروحي للبحر كقوة سامية ومتواضعة تجعل الجنود يقدّرون «مدى اتساع الجنس البشري وتعدد الثقافات في العالم» ويصبح منتقدًا للعزلة العرقية التي غالباً ما تصاحب

الوجود غير الساحلي. لكن هايلو يحتفي بذلك ويدعو إلى التواصل والتبادل العالمي بطريقة لا تسعى إلى محو الاختلافات الوطنية والثقافية والدينية بل تكمّلها، ولأسباب براغماتية يضع المسيحية العالمية (في شكل الكنيسة القبطية) كسابقة تاريخية لعموم المستقبل–الأفريقي، أقلّ منه للعقيدة. وبالنسبة للجنود الإريتريين الذين يبحرون على هذه السفينة، فمعرفتهم بكتابهم المقدّس تعمل على التعرف وتبجيل الجغرافيا الأجنبية والمعالم الأثرية التي يقابلونها أثناء رحلتهم شمالًا. كما يوفر لقاءهم مع قناة السويس الشعار الإيجابي للحداثة التي تمكّنُ من الاتصال الآسيوي والأفريقي، من خلال «الفرنسي المبتكر فرديناند ديليسبس». على هذا النحو، تتناقض القناة وديليسبس في الفصل 2 مع مدينة أسمرا، التي يقال إن الإيطاليين جعلوها «مثالية»، «جميلة ومؤثرة، بشوارع وطرق جيدة الصنع محاطة بالأشجار على كل جانب». هذه الصورة الإيجابية الافتتاحية لأسمرا تفسحُ على الفور المجال إلى مشهد محطة القطار المروّع، حيث كما ناقشنا سابقًا، عربات القطار التي تلتهم الجنود وتطلق المحطة العنان للفوضى العنيفة. ما يكشفه مشهد قناة السويس هو أن التكنولوجيا الحديثة التي قدمتها أوروبا ليست إشكالية في حد ذاتها. المشكلة تكمن في العلاقات الإمبراطورية الاجتماعية التي رافقتها. كانت مصر قد حصلت بالفعل على الاستقلال السياسي في عام 1922، ما يجعل قناة السويس متاحة لاستعادة هايلو لها كرمزٍ تقدمي لإمكانيات عموم أفريقيا. وإذا كان يمكن الإشادة بالفرنسيين، من خلال دليسيبس، لمساهمتهم (غير المقصودة) في هذه الإمكانية السياسية، فلا يمكن لهايلو إلاّ إدانة الإيطاليين لجهودهم المستمرة لتقسيم الدول وحكمها. فتأثير إيطاليا ليس من خلال استخدام القوة العسكرية فحسب، بل أيضًا من خلال استخدام ما يُعرف بالهندسة الاجتماعية والبروبغاندا. وأحد أكثر أقسام الرواية غرابة هو مناقشتها للقوالب النمطية التي يُنظرُ بها إلى العرب. ويبدو من الغريب أن يكرّس هايلو العديد من الصفحات لتكرار هذه القوالب النمطية القبيحة دون إبداء حكم عليها. لكن قراءةً أكثر تمعّنا تكشف أن هذا شكلٌ ذكيّ ودقيق من الحجج المناهضة للاستعمار من طرفهِ. وكما يشير الراوي، فإن الإيطاليين هم المسؤولون عن نشر هذه الروايات عن «الكسل» العربي، التي يدحضها نشاطهم كمقاتلين في الدفاع عن ليبيا ضد الاستعمار. والشجاعة (الليبية) التي يلاحظها توكوابو مباشرة تكشفُ وهمَ التوصيف الاستعماري لهم وتؤكد ما يمكن أن يطلق عليه فانون «الحقيقة الاجتماعية» التي تأتي بالممارسة.

إن توظيف النصَّ له أهمية واسعة عند هايلو، حيث تتمتع كتابته بديناميكية متواصلة، وتتحرك بين الشخصية الأولى والثانية والثالثة دون انتقال فعليّ (على الرغم من وجود الغرض دائمًا) وتتضمن الأمثال، والأغنية، وتقنيات اللقطات السينمائية المعاصرة، والشعر الإيطالي في القرن التاسع عشر. ويبيّن الخلط بين الأسلوب الأدبي والصوت مقاربة ديناميكية متساوية للزمان والمكان؛ عندما تُتفتح الرواية في ميدياس رس، مع مغادرة توكوابو إلى الحرب، ومع عودة طارئة إلى ولادته وطفولته، ثم تعود إلى الحاضر، وتستحضر عامين من فترة التجنيد لتنتهي في منطقة زمنية غير محددة، بعد وفاة والدته: بعد بضعة أيام تقدّم توكوابو بطلبِ تسريحه من الجيش الإيطالي وعاد إلى قريته. لم يعش والدُه لفترة طويلة بعد ذلك، واستمر موتُ أمّه يمثّل أكثر تجربةٍ مؤلمة لفترة طويلة في حياته. تتمتع الحركة عبر الفضاءات عند هايلو بأهمية خاصة في جميع أنحاء الرواية (وتبدأ في مقدمة المؤلف، التي تحدد أصول الرواية في رحلته البحرية إلى إيطاليا). فتوكوابو يتنقّل باستمرار. وقبل أن

يصبح جنديًا بوقت طويل ويسافر بالقطار والسفر بالسفينة، ثم سفره سيرًا على الأقدام في الصحراء. نشاهده وهو طفل يرافق والده في رحلات متعاقبة إلى ماشيتهم، بينما تتنقل الطيور والقردة المجاورة أيضًا. كما نشهد تحركات الحشود في المحطة، ثم الحركة الوهمية للجبال الإريترية بعيدًا عن السفينة، وحركة الدلافين التي تسبح حول السفينة، وحركة البدو الليبيين، وحركة الجنود في المعركة. ويربط هايلو حركة المادة الفعلية وعبرها بحركة العواطف والصوت، وكلها تتّحدُ وتتوّجُ في القلب النابض بشكل مفرط لأم توكوابو، ما يتسبب في تمزق شريانها أثناء استدعاء اسم ابنها. ومثل فانون، يحصل هايلو على تحليله السياسي من خلال فحص ظاهري للذاكرة، والعواطف، والخيال، والحواس، حيث يلعبُ قلب الإنسان، بالنسبة لهايلو، دورًا مركزيًا موحّدًا، كما تفعل أغاني البشر. وفي مقاربته للتأثير، كما هو الحال مع استكشافه لتأثير البيئة الطبيعية على الوعي البشري، يتوقع هايلو ما ستكون عليه الاتجاهات الحاسمة في القرن الحادي والعشرين في العلوم الإنسانية.

على الرغم من التزامها المواضيعي والأسلوبي بالتدفق الدينامي للوعي، فإن رواية «المجند» أيضًا عملٌ مؤلف ٌبعناية ومنضبط ٌتماما. حيث يفضل هايلو الشكل البنيوي للتوازي (ومرة أخرى، فمقدمة المؤلف هي التي تبدأ هذا النمط، وتقرنُ المجند مع قصيدته الطويلة انتحار الإمبراطور تويدورس). يقع مشهد محطة قطار أسمرا الفوضوي بالقرب من بداية الرواية ونهايتها؛ وكذلك يفعل موضوع بَركةِ الكهنوت / ولعنته في توكوابو. ويحرص هايلو على توأمة أغنية إريترية تقليدية مع قصيدة الإيطالي ليوباردي، وكلاهما تعبيرٌ عن مشاعر مماثلة لدعم «الوطن» وضد المنفى. ومن المفارقات أن القصيدة الإيطالية هي الأكثر معارضة للحرب بشكل علني. كما يستخدم هايلو، الثقافة الجمالية الإيطالية ضد نفسها، لانتقاد النزعة العسكرية الإمبريالية الإيطالية. تكمن نقطة التوازيات هذه في تبايناتها بقدر ما تكمن في تكرارها. ومن مشهد القطار في الختام، استوعب الموظفون الإريتريون ميل المستعمر للعنف، كما فعل الحشد. وفي الوقت الذي تنتهي فيه الرواية، يرغب توكوابو في أن تُصبّ عليه اللعنات وليس مباركته. فخطته الأخيرة هي توليفٌ موسعٌ لقصائد التغرينية الإيرترية مع الشاعر الإيطالي ليوباردي. على عكس تلك، فإن هذه الأغنية تجعل من إمكانية وجود مستقبل بديل عن طريق القطيعة مع الماضي: «لقد انتهيت من إيطاليا ومحنها / ... / فوداعا السلاح!»

---

* لورا كريسمان: كاتبة وناقدة وأستاذة كرسي في جامعة واشنطن، حيث تهتم بدراسات الأدب الإفريقي ودراسات ما بعد الاستعمار في إفريقيا، بالإضافة إلى الأدب الحديث بالإنكليزية.

* في معظم مراحل الكتاب يشير الراوي إلى الليبيين باعتبارهم العرب، وقد رأى المترجم استبدال التوصيف بالليبيين حيثما وُجد مناسبا. المترجم

الفصل الأول

لوحة للفتوّة

وضع بندقيته بجواره، ثم ركع أمام والديه، وسألهما: «باركاني يا أمي وأبي، لأنني لا أعرف ما سيكون عليه مصيري في طرابلس». كان توكوابو يرتدي بدلة كاكي ويزيّنُ وسطه بنطاقٍ ملوّن، ومن كاحله إلى ركبته ربط شريطا سميكا من القماش، يشبه قطعة القماش التي توضع على ظهر الحصان. المشاعرُ طغت على والديه وكانا عاجزين عن الكلام. بعيون مليئة بالإعجاب والصدمة نظرا إلى الزيّ الذي يرتديه ابنهما، فلم يريا مثله من قبل. كانا قد بلغا من الكبر عتيّا فوالد توكوابو في منتصف السبعينات، والأمّ في أواخر الستينيات من عمرها. لكن لو خمّن أيّ شخص عمرهما في تلك اللحظة لزاد كلاّ منهما عشرا من السنين. كانت علامات القلق بادية على وجهيهما، والعيون شاخصةٌ وقد غارت في محاجرها، والحواجبُ نُحُفت حتى كادت تتلاشى.

توكوابو كان ابنهما الوحيد. لكنّ هذا لا يعني أنهما لم ينجبا غيره، فأطفالهما الخمسة الآخرون قد أخذهم الله منذ فترة طويلة. وبالتالي تسبّب هذا التنافس مع الموت في قلقٍ عظيمٍ لديهما. لأنه حينما كان صغيرًا، كاد الله أن يأخذ توكوابو أيضًا.

بعد أسابيع قليلة من ولادته، حملته أمه إلى كنيسة القرية. وكما جرت العادة، كانت الأمّ ممنوعة من دخول الكنيسة لأنها ما تزال في مرحلة النفاس، وهكذا وقفت في باحة الكنيسة تضمّ وليدها، عيناها مغرورقتان بالدموع، وصلّت متوسلة: «يسوع، يا مولاي، يا مخلّص هذا العالم، لقد أخذت مني العديد من الأطفال حتى الآن؛ وكما ترى، فأنا عجوزٌ لم يعد بإمكاني الإنجاب. يسوع يا إلهي، كن لطيفًا معي وأسبغ عليّ رحمتك. أتوسلُ إليك أن تترك لنا هذا الطفل، حتى عندما أهرمُ مع والده، يمكن أن يكون سندا لنا وعيناً نرى بها. أتوسّل إليك أن تقدم لنا هذا الطفل كهدية». كان مخاضُ الولادة قد أنهكها وجسدها يرتجف بفعل العاطفة المشبوبة ومشاعر الأمومة، وبدأ رأسها يدور وقد غلب عليها شعور بالدواخ. ثم سرعان ما تعافت وعادت إلى البيت يتملّكها شعورٌ قوي بالأمل لطفلها الوليد. عند وصولها غطّت في نوم عميقٍ مليء بالأحلام، بينما ابنها ينام على صدرها طوال الوقت. وفي منامها رأت نفسها في وسط بريّة رائعة، ورأت تنوّعا من ستّ زهور برية من الهيمانانتوس والهواهو، وهي تتمايل في الرياح. وبينما هي تقترب منها لتأمّلِ روعتها، رأت يدا مجهولة تحمل منجلا تقوم بقطع الزهرات واحدة تلو الأخرى. صدمها ما رأت، ووقفت جامدة بينما المنجل مستمرّ في قطع بقية الزهرات. وعندما اقتربت اليدُ من السادسة، قام شخص غير مرئيّ بإزاحتها بعيدا عن الزهرة المتبقية كي لا تُقطع. تكرّر هذا المشهد ثلاث مرات، ثم بينما هي تتساءل بقلق حول ما يحدث أمامها، رأت فجأة هيئةً لشخصٍ بهيّ الطلعة يلفّه نورٌ

ساطع، وبادرها قائلا: «الرؤيا التي شاهدتِها هي رمزٌ لأطفالك الذين توفي خمسة منهم، وسأترك لك الأخير. أنا مدهانيي آليم، الذي تثقين به وله تصلّين،» ثم اختفى فجأة. استيقظت من نومها غير مصدقة وتغمرها السعادة. كان الطفل يصرخ، وبعد فترة طويلة من مرض ألمّ به، بدأ يرضع من ثديها بشغف كما لم يفعل من قبل أبدا. بالكاد صدّقت كم هي محظوظة، وغمرته بالقبلات بينما انسابت دموعُ فرحٍ ساخنة فوق خديها، وشكرت إلهها على لطفه ورحمته لإبقاء ابنها على قيد الحياة. مع مرور الوقت ترعرع ابنُها قويًا يتمتع بالصحة. وفي يوم معموديته أصرت أمّه على تسميته توكوابو مدهانيي آليم (نعمة الله) لتلقيها نعمة عظيمة من إلهها. كان والده يدعى حبتي ميكائيل واسمُ والدته تكيا.

توكوابو مدهانيي آليم، أو توكوابو كما يُدعى باختصار، لأن الناس يحبون اختصار الأسماء، نشأ ليصبح شابًا قويًا يستخدمُ مواهبه في البيت وفي الحقل. لقد أحبّ الناس واحترمهم. وكان يعبّر عن حبه لأمه في كثير من الأحيان بمعانقتها واحتضانها وغمرها بمعسول الكلام والمحبّة. كما أدخل السعادة إلى قلب والده من خلال وجوده معه، والقيام بالأعمال المنزلية، وتعلّم أسماءِ أسلافِه منه.

عند الغسق، يلعبُ الأبُ معه ويختبرُ مدى معرفته بنَسبِه، فيسأله، «من هو والدك» فيجيبه توكوابو بما يُدخل السرور على قلب أبيه «أنا ابن حبتي ميكائيل» سيضيف والده المزيد من الأسماء إلى القائمة، وفي كل مرة يعلّمه المزيد. «حبتي ميكائيل هو ابن حيردو، الذي هو ابن ريدائي ...» كان من الممتع رؤيةُ الطفل يلعب مع والديه بهذه الطريقة وينمو ليصبح مصدرَ سعادةٍ في البيت. عندما كبر، أرسله أبوه إلى المدرسة، فكان سريع التعلم وتفوق على نظرائه في حفظ ما يعلّمه إياه أساتذته، وعدم نسيان ما يطرق مسامعه. لكنه كان ينمو أيضًا باعتباره حبشيّا، وطوّر اهتمامًا بالأسلحة وبالأمور العسكرية. في هذا الصدد، كان الأب سعيدًا وشجعه لأن يكون شجاعًا مع وعودٍ بأن هذا السيف أو ذاك الرمح سيكون ملكه لاحقًا. هناك مثلٌ في اللغة التيغرينية يقول «شفرةُ الحلاقة لها حافة حادة» وذكّر ذلك والد توكوابو ببسالة ابنه وذكائه في التعامل مع الأسلحة، ما جعله فخورًا به. كذلك أعجِبت أمُّ توكوابو بشجاعة ابنها وبما يتمتع به من قدرات. وأيّ أمّ لا تكون كذلك؟ لكنها كانت أيضًا قلقة حيال هذا الأمر. فقد لازمها القلق من أن ابنها سيموت في الحرب ذات يوم، وظلّت تتساءل أين سيذهب للقتال؟ وهل سيعود إن غادرها للمشاركة في حرب ما؟ لم تكن قادرة على تهدئة هواجسها، وحاولت مناشدة زوجها للتدخّل، ولكن دون جدوى. كان يرفض حُجَجها باستمرار قائلا «لا تكوني ساذجة ... شجاعةُ ابننا يجب أن تكون مصدر فرح لنا ... لا الحزن». وهكذا تضطر الأم إلى تهدئة مخاوفها بالاعتماد المطلق على إلهها لحماية ابنها من كل مصيبة أو كارثة.

كانت العائلة غنية ولديهم وفرة من رؤوس الماشية، واستأجروا عائلة مسلمة لرعايتها. في بعض الأحيان يذهب توكوابو ووالده إلى عائلة ساهو المسلمة لقضاء ليلةٍ هناك لرعاية ماشيتهم. عندما يقومان بتلك الزيارة كان توكوابو يحبّ ركوب البغلَ أكثر من أي شيء آخر، ويستمتع عندما يغنى والده ويروى له القصص على وقع مسير البغل الذي يحملهما ويتحرك بيسرٍ على تلك السهول مثل ماء يسيل على الأرض. في طفولته كان توكوابو يصاب بالهلع من حركة الطيور

المفاجئة من حوله، وكانت خربشة الأصوات في الأدغال تؤدي إلى اضطراب في قلب الصبي. أثناء مرورهم، قد يرون قطيعًا من قردة البابون، فيضحك توكوابو على مشهد قفزة سريعة لقرد ما أثناء ابتعاده عنهما. في قلبه الشاب، ظلّ يتساءل عن سبب هروب قردة البابون أمامهما وهي الأكثر عددا منهما، لكنه احتفظ بهذه الأفكار لنفسه. بعد الوصول إلى وجهتهما، يقدّم لهما أصدقاؤهم المسلمون من عائلة ساهو الحليب والعصيدة، ويستمتعون بالسّمر معا تحت ضوء القمر، والاستماع إلى مضغ الأبقار. كان الصمت يُخترق بين حين وآخر بسبب قُشاع الضباع القبيح ونباح الكلاب وصراخها، وهو ما يذهل توكوابو ويخيفه أيضا. كل هذه الانطباعات التي استوعبها وحفظها في قلبه الصافي والبريء سيستعيدها في فترة لاحقة من حياته عندما غادر إلى بلدٍ آخر فبقي وطنُه كنزًا في ذاكرته. عند عودته إلى البيت من مثل هذه الرحلات مع والده، كان توكوابو يلتصق بأمّه ويخبرها بهذه القصص.

كان ذلك هو الوقت الذي تدور فيه الحرب في طرابلس، واعتُبر من المناسبِ لأهل الحبشة أن يكونوا على استعداد لسفك دمائهم في هذه الحرب. فكان الشباب يغنّون، «لا يرفض الذهاب إلى ليبيا إلاّ النساء.» ويغنى الصغار، مُطلقين كلماتهم المسمومة: «عودوا إلينا لاحقًا... يا طرابلس امنحينا بعض الوقت حتى نشبّ عن الطوق.» توكوابو كان يستمع لكل هذا. وبما أنه كان صبيًا شديد الذكاء، فدائما ما تدور في ذهنه كل هذه القضايا. بعد مدّة، وبالنسبة لشخص وُلد في تلك الفترة، حدث تدريجيا أن جميع هذه الأغاني والمعلومات استقرّت في قلبه. وبما أنّ ما تسمعه في طفولتك يصبحُ أكثر وضوحًا مع تقدمك في العمر، فقد قرر الذهاب إلى ليبيا للقتال كبطلٍ واكتساب شهرة. لقد قرّر ذلك فقط لأنه سمع أنّ حربا تدور هناك. ربما تأثر طموحه أيضًا بزعماء أحباش أعلنوا عن كرههم الجلوس خاملين بعد فترة راحة قصيرة من الذهاب إلى الحرب، وكانوا يتوسلون، «يا إلهنا، لا تجعلنا خاملين، أرجوك أحضر لنا الحرب.» كان حماسهم واضحًا في قولهم المتفاخر بأن التمرين قد يساعد في إصلاح أجسامهم المترهلة. على أي حال، بمجرد أن اتخذ قراره بدأ توكوابو مقلاّ في حديثه وعزل نفسه أكثر. شعرت والدته بشيء ما يحدث معه وبدأت تستجوبه باستمرار، لكن رده الوحيد هو، «ماذا تقولين، يا أمي ... لا شيء يحدث ...» كان يتجنب نظراتها الفاحصة، بالإشاحة بنظره عنها خوفًا من كشفها ما يعتمل في فؤاده. ذات ليلة غادر منزله وانضم إلى الجيش كمجندٍ متجه إلى طرابلس. ولتخيّل المحنة التي سبّبها لأبويه، دعْ أي شخص يضع نفسه في مقام الوالدين أو يكون له أبوان يتفهم شدة الكرب الذي يشعران به. في البداية لم يتمكنا من تصديق أو قبول حقيقة الحدث، لكنهما بعد ذلك تركا كل دموعهما تسقط وألمّ بهما كربٌ عظيم. لكن كلّ ذلك لم يُجد نفعا. فولدهما الآن في أيدي الإيطاليين المتعصبين، وليست هناك من طريقة لاستعادته.

عندما حان يوم الرحيل، قرر الوالدان رؤية ابنهما للمرة الأخيرة، وسارا ببطء إلى محطة القطار. وقفا بجانبه، وكما رأيناه في البداية، جثا أمامهما منتظرا مباركتهما. ظلاّ صامتين لبعض الوقت، لكنهما أجبرا نفسيهما على تخريج الكلمات: «كنتَ نورنا وفرحنا ونشعرُ بَعدك باليتم. لماذا ترغب في القتال من أجل الأجانب؟ ما الفائدة لك ولشعبك في أن تحمل السلاح وتقاتل في الخارج؟ لديك كل ما تريد هنا، فلماذا؟ ولكن ماذا يمكننا أن نقول، هذه مشيئة الله... اذهب، عسى ربنا أن يحميك ويمنحك القوة. أما نحن فقد تقدم بنا العمر ويتملكنا الحزن، وقد لا نشهد عودتك بعد عامين. نتمنى أن

نراك مرة أخرى، لكن كل شيء في يد الله.» بعد أن باركاه، وقبل أن يتمكنا من تقبيله مودّعين جيدا، خطفه الحراس من أحضانهما. بنظرة خاطفة رأت الأم ابنها يبكي بحرقة، فلم تتمالك نفسها وأغمى عليها. كادت ستسقط أرضا لولا دعم زوجها. فكان المشهد مدعاة لتأثر الناس من حولها ولم يتمكنوا من السيطرة على دموعهم. «يا له من ولد قاس! كيف يمكن أن يترك والديه المسنين وراءه؟» كانوا يشتمونه. وظل توكوابو ينظر إلى والدته ويسمع لعنات الحشد؛ فانقلب العالم في نظره رأساً على عقب، وركض مبتعدا. رغب لو انشقت الأرض وابتلعته. بينما كان والده يتوسل بخشوع للحشد لعدم صبّ اللعنات على ابنهما، بل أن يباركونه بدلاً من ذلك، أمّا أمّه فلم تسمع سيل اللعنات على ابنها بعد أن أغمي عليها.

كان من المؤلم لها لو أنها سمعت ذلك اللعن لابنها. ولو كانت قادرة على الحديث، لاتّفقت مع مناشدات الأب لهم بمسامحته. لقد أحبا ابنهما كثيراً. ثم عادا إلى قريتهما وقد تمكنت منهما المعاناة مدفوعة بالحزن الشديد. خيّم الظلام على المنزل، وكان الأمر أشبه بالعودة إلى البيت بعد المشاركة في جنازة أحد الأحبة.

الفصل الثاني
مغادرة أسمرا

أسمرا مدينة مقامةٌ على سهلٍ منبسط. ومن يراها من أعلى قصر راس علا يجدها جميلة تأخذ الألباب. وصولُ الإيطاليين إلى المكان حوّله تماما وجعله مثاليًا، بشوارع وطرق جيدة تصطفّ على جانبيها الأشجار. في ظهر ذات يوم، وعلى الطريق المؤدي إلى محطة القطار، كان هناك الكثير من الناس يشقون طريقهم على عجل. وسأل أحدهم غيره عن سبب مرور آلاف الأشخاص، فكان ردّه: «اليوم يغادر الجنود إلى طرابلس. لنذهب ونرى.» كان شخص آخر يقول إنه ليس من الممتع حقا رؤية الناس يبكون في بؤس ونكد. أيّ شخص لا يشعر بضيق في مثل هذا الموقف هو في الواقع خال من المشاعر الإنسانية. كان هناك الكثيرون مزدحمين حول القطار. وفي وسط الحشد، أخذ الناس ينادون على أحبائهم، أما أولئك الذين لم يتمكنوا من العثور على أحبائهم فبدا عليهم اليأس. كانت تلك لحظاتٌ مؤلمة، وفي أكثر من مرة يكتشفُ الناس شخصًا من بعيد فيقتحمون الحشود ويدوسون على أقدام غيرهم لمجرّد رؤية أحبتهم، ما يثير الكثير من الإهانات والشتائم والدموع ممن يطالهم الأذى. أعدّ البعض الطعام والشراب لأحبتهم وأخذوا يبحثون عنهم. وعند رؤية الحشد المضطرب، شعروا باليأس ووقفوا هناك مبتعدين. كان آخرون يكتشفون بعضهم البعض فيهرعون للتلاقي، وعندها تتدخل الشرطة العسكرية وتضربهم بالسياط (نعم، بالسياط مثل الحمير). وإذا رأوا بعضهم البعض من مسافة بعيدة، كانوا يودّعون من بعيد ويشيرون لبعضهم بالمباركة بإيماءات اليدين. لكن الأكثر إثارة للقلق في ذلك المشهد هي الشاحنات السوداء التي جاءت هادرة مثل أسودٍ جائعة تستعدّ لابتلاع أبناء الحبشة في بطونها الوحشية. ظلت الشاحناتُ تطلق ضجيجها وأبواقها، بينما ترنمت النساء بأغنية حزينة «القطار يأتي مطلقا دخانه، وابنةُ أمّك غارقةٌ في البكاء.» مع وجود محطة القطار في ذلك الوضع المليء بجنون الجمهور المولول، كان الارتباك والاضطراب أبعد مما يتخيله المرء.

في وقت لاحق، جاء الضباط الإيطاليون لإبلاغ الجنود بالاستعداد للمغادرة. اشتد ضجيج الحشود، وبدأت الشرطة العسكرية في ضرب الناس مرة أخرى. كان النحيبُ والصراخ أعلى وسُمع في كل مكان. ثم بدأ التدافع، فسقطت العديد من النساء، ولم يكن هناك من يساعدهن. لم تمض خمس دقائق حتى انطلق صوت البوق، فلم يتحدث أحد لبضع دقائق. وعندما بدأ الجنود في الصعود إلى عربات الشحن، بدأ الناس يشعرون بالتوتر مرة أخرى. أغلقت الأبواب المعدنية، وبدأت القاطرات محركاتها في حركة بطيئة متعجرفة، تُظهر فخرها بما كانت تفعل، كما لو كانت تقول إنها تعرف بالفعل أن حمولتها من أفضل أبناء الوطن. كان المجندون يلوحون بأوشحتهم صائحين «وداعا يا وطن... سأذهب إلى طرابلس». ظلوا يغنون وهم يختفون في الأفق. كان هذا وداعٌ أخير، لأن العديدين منهم لن يعودوا أبدا.

أخذ القطار الأسود ينطلق هابطا المنحدرات المتعرجة والجبال. وبينما كان يحمل المجندين فوق تلك المنحنيات والالتواءات، بدا وكأنه قوةٌ شريرة تدفع بعض المخلوقات البائسة نحو الجحيم. وكان من بينهم توكوابو حبتي مكايل. من أربيرو بوي، وحتى نيفاست، و إيمبتكالا، ظلوا يراقبون الخضرة، والتلال الخصبة والمسارات المتعرجة. لكن بعد فترة وصلوا إلى ما بعد غيندا، حيث استقبلتهم أرض قاحلة. وبعد أن سافر القطار عبر سهول شبه صحراوية طوال فترة العشية، حطّ بهم الرحال أخيراً في مصوع عندما كان الليل يرخي سدوله. بينما كان البحر المنبسط أمامهم يمتلئ بالدخان بسبب الضباب.

بالنسبة للمجندين كانت تلك المرة الأولى لهم على شاطئ البحر. أخِذ توكوابو بالمشهد الذي أبهر بقية رفاقه المجندين. من الواضح أن البحر يمثّل لغزا لمن يراه للمرة الأولى. فلا يمكن وصفُ الإحساس الذي يكتنفك آنذاك، ولا يمكن التعبير عنه بالكلمات، فهو يبدو كحقل واسع لا نهاية له، رماديّ عند الغسق والفجر، وبالتناوب مع اللون الأخضر خلال النهار. في الواقع، أنت لا تعرف ما يشعر به قلبك عندما تقف أمام المنظر: يبدو وكأنك حالمٌ تنظر إلى روعة ما تتشكّل أمامك، وقد أخذك الذهول ممّا ترى. العديد من الأفكار تطوف بذهنك، والرغبات كذلك. ثم رغبةٌ لا يمكن احتواؤها. حين تشعر كأنك تريد أن تركض وتقفز في البحر؟ أوه كلا ... فماذا عن الخوف؟ أين يجب أن يذهب؟ وأنت غير قادرٍ على التحكم في نفسك، فتبكي (ماذا يمكنني أن أقول) وتضحك في الوقت نفسه. أن تمجّد الله الذي خلق هذا الجمال المثالي، ويطيرُ قلبك إلى السماء. تشعرُ بنشوة غير مسبوقة، وأعتقد أنك قد ترغب في تجربتها إلى الأبد، وتنال منها قدْرا يسيرا في كل مرة. وإن لم تعدك طرطشة الماء فوق الشاطئ إلى الواقع، فستبدو وكأنك في عالم الأحلام. السرور عظيمٌ جدا عند الاستيقاظ في الفجر، حين تشاهد موجات البحر الصغيرة تتناثر على بعضها البعض، كما تتعرج في اتجاهات مختلفة مثل قطيع ماعز خالٍ من الهموم، بينما تهب الرياح اللطيفة من البحر على وجهك، وتبرّده من حرارة فرنٍ مصوّع. يمكنك أيضًا رؤية بعض قوارب الصيد التي تغادر لصيد الأسماك، ملقية شباكها (ورافعة أشرعتها أيضًا) في الوقت نفسه الذي تتواجد فيه بعض الأسماك الكبيرة التي تأتي إلى المياه الضحلة القريبة من الساحل للعثور على الطعام، ثم تسرع مبتعدة قبل أن تلسعها حرارة الشمس. هذا مشهد بديع ومتعةٌ للناظرين. لكن علاوة على ذلك، فإنه يجعلك تشعر كما لو أنك تشهدُ ما قرأته في الإنجيل عن بحيرة طبريا أو بحر الجليل. وهو ما يذكّرك ببطرس، وأندرياس، أبناء زبدي (يعقوب ويوحنا، تلميذان ليسوع)، ويذكرّك أيضا بيسوع المسيح. كذلك راودت المشاعر نفسها جميع المجندين.

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي، حان وقت الصعود إلى السفينة التي كانت جاهزة للمغادرة وأطلقت دفقاتٍ من دخان كثيف. الضباط الإيطاليون كانوا يجلسون على سطح علوي بعيدًا عن البقية. أما (الأحباش) فقد تمركزوا في العراء، حيث لا ملجأ من حرارة الشمس ومن الأمطار. كان مكانا يليق بالحيوانات.

أطلقت السفينة هديرا مدويا أثناء تشغيل المحركات. وكان البحّارة يركضون إلى الأمام والخلف، بعضهم يطوي السلالم، وآخرون يسحبون المرساة الثقيلة من أعماق البحر. في النهاية، قام الحراس بدوريات في السفينة خشية أن يختبئ أي شخص غريب فيها. وعندما صار كل شيء جاهزا. أطلقت السفينة عواءً مخيفا يبعث رعشة باردة في معدتك، ثم تحركت ببطء.

عندها بدأ أبناء إثيوبيا في الغناء. وأخذ أحدهم يعزف على آلة الكيرار، فكوان هو فتىً أعسر يدق الطبل فيحدِثُ ضجيجا يصم الآذان. شرد توكوابو بأفكاره بعيدًا عن عالم الغناء والرقص. ومن سطح السفينة نظر إلى وطنه. وسيطرت والدته ووالده على أفكاره حينما رأى ميناء مصوّع يهرب مبتعدا. صحيح أنه في الليل على متن السفينة لا يبدو للمرء أنها تبحر، بل يخيّل إليك أنّ الأرض تتحرك بعيدًا. وشعر بجيَشانِ عاطفته عندما رأى أرض بلاده تبتعد عنه. كما شعر بغصّة في الحلق وقال. «يا بلادي التي ربتني في أرضها الخضراء وتلالها الجميلة، أقول وداعًا. وللحقل الذي عشت فيه ذات مرة مع ماشيتي ورعاتي ... أقول لك وداعا.»

انطلقْ،

اتركْ عائلتك وبلدَك خلفك

من أجل شخصٍ آخر

لا تريده.

تراودك أحاسيسُ الغربة

حتى يوم مَمَاتك.

فتشعرُ بالغربة حتى تموت.

تدبّر في هذه الأغنية التراثية، وندم على اليوم الذي وُلد فيه، يوم ولادته قائلا لنفسه بغضب: «كان خياري أن أتيتُ إلى هنا، لذا دعني أتحمّل العواقب». ميناءُ مصوع ما يزال يبتعد عنه وأضواؤه تخفت تدريجيا. وبدت الجبال الإثيوبية أشبه بالجدران الضخمة المغطاة بالضباب. كانت المياه خلف السفينة مليئة بالرغوة فبدت مثل نهر متدفق يتبعهم. على الجانبين الأيسر والأيمن، يمكنهم رؤية آخر أضواء حمراء وخضراء تومض، والتي رأوها كتذكير نهائي وتحيّة من وطنهم. استمروا في التحديق حتى اختفت الأضواء تماما وأفسحت المجال أمام حلول الظلام. وعندها غرقوا جميعها في تفكير عميق، وقد غلفهم إحساسٌ بالأسى. أولئك الذين كانوا يغنون توقفوا دون أن يدركوا، فقد كانوا يعرفون أنهم يغادرون بلادهم. وحتى الشباب الأقوياء منهم الذين أظهروا من قبل أنهم ليسوا عرضة لأي شيء يصرف سعادتهم، أصبحوا هادئين الآن. جلسوا هم أيضًا محاولين النوم في أي مكان يمكنهم فيه وضع رؤوسهم، فهنا لا يوجد (نِدّي) أو فراش الطين الذي اعتادوا النوم عليه، وبالكاد يُغطون أنفسهم بمعاطفهم.

بالأخص أولئك الذين لديهم آباء وأخوة والذين لديهم زوجات وأطفال كانوا غارقين في ذكرياتهم. أما الذين لم يتركوا وراءهم عائلات فقد فكروا في أصدقائهم أو الأشخاص المقربين منهم. لكن كلهم كانوا يفكرون في بلدهم في الوقت نفسه. من الأسهل أن نتخيل، أكثر من قدرتنا على وصف سرعة دقات قلوبهم في ذلك الوقت، فذاكرة وطن المرء يمكن أن تكون طاغيةً. ومع ذلك، ففي تلك الليلة سقطوا في نهاية المطاف في شكل من أشكال النوم الذي تخللته نوبات من ذكريات وأحلام عن أحبائهم. وعندما استيقظوا في صباح اليوم التالي، نظروا حولهم إلى اليسار واليمين. فإلى يسارهم رأوا أرض

حبَاب التي أدخلت السعادة إلى قلوبهم رغم أنهم لم يروا المكان من قبل. وهو عبارة عن قطعة شاسعة من الأرض مرتبطةً ببلدهم وشكلت جزءًا منه. في وقت لاحق من المساء، وصلوا إلى بحر مفتوح لا يمكن رؤية أيّ أرض منه. كانوا محاطين بالمياه من جميع الجهات والسماء فوقهم. لا شيء آخر يمكن رؤيته كما شعروا بالحرارة. ولكن هناك ميلٌ إنساني لتحويل انتباه المرء عن التفكير في العطش عندما يكون محاطا بالمياه، وبالتالي، خففت رؤية مياه البحر من عطشهم، كما خفّ شعورهم بعدم الارتياح.

في اليوم الثالث وصلوا إلى ميناء بورتسودان الذي كان تحت سيطرة البريطانيين، وأخيرًا ألقت السفينة الحربية مرساتها وتوقفت. بدأ العديد من السودانيين السود ضخام الأجسام بالصعود إلى السفينة. وهناك التقى الشعبان، الإثيوبيون والسودانيون وجهاً لوجه. كان الأخيرون يفكرون، «هؤلاء العبيد! إنهم ذاهبون إلى طرابلس من أجل المال!» بينما الأولون يقولون في أنفسهم، «هؤلاء السود! لا يمكنهم أبدًا أن يكونوا متفوقين علينا.» كلاهما يحكمان على بعضهما بقسوة. ثم غادرت السفينة الميناء وتوقع المجندون رؤية أسودِ البحر، والأسماكِ التي تأكل البشر كما سمعوا عنها، ولكن بدلاً من ذلك رأوا الدلافين تسبح في البحر وحول السفينة. يقال إن الدلافين تحب البشر. والسبب في أنها تسبح وراءهم هو إنقاذ البشر الذين قد يسقطون في البحر. ويقال أيضا إن الدلافين هي التي أنقذت القديس سيمونيس، وحملته إلى بلاد، عندما رماه أعداؤه في البحر. ويقول البعض إن الدلافين تحب السباحة حول السفينة في حال قيام شخص ما برمي الطعام إليها. لكن أي من تلك الروايات هي الحقيقة، فلا أعرف. بالنسبة للجنود، كل هذه الأشياء جديدة لهم، وكانوا يلتزمون الصمت. بدا لهم أن الدلافين تطلقُ أغاني الترحيب والوداع، وبدا كأنها تقول، «لقد ودّعناكم ورافقناكم عبر النهر، والآن نعود إلى موطننا لننال مكافأتنا» وهي أغنية كانت الفتيات في أرضنا ترددها عند إرسال العريس إلى قرية العروس. سواء كانت تلك الدلافين بحاجة إلى إنقاذ شخص ما أو تبحث عن الطعام، فلا يمكن للمرء أن يعرف؛ ولكن بعد ذلك عادت الدلافين إلى بورتسودان وقفزت من المياه لتغطس فيها من جديد. كانت الشمس تغرب الآن، وهبّ نسيم بارد جعل الناس يشعرون بأنهم على قيد الحياة.

كان الظلام دامسا في وسط البحر. وأخذت السفن التي تمر بهم تشير لهم بالأضواء كما تفعل سفينتهم بالمثل. في المجمل كان المشهد بأكمله مذهلا، والجزء الأكثرُ روعة بالنسبة لهم هو رؤية القمر في منتصف البحر. عندما كانت السماء والبحر هادئين، وفي اتجاه الشرق من جانب الشواطئ العربية، هناك جسمٌ مستدير يشبه الشجيرات خافت ومستدير، ولكن لا يُرى سوى نصفه، فيبدو كأنما تنظر إلى نصف رغيف إنجيرا، بزغ من الماء، وحينئذ هتف الجميع في خوف وصلوا، «باسم الربّ والابن والروح القدس» ثم غطوا وجوههم. بالنسبة لهم بدا كأنه شبحٌ مخيف وليس انعكاسًا للقمر الذي كان يظهر من الأفق. كلّ انتباههم الآن مسلّطٌ على القمر وهو يرتفع ببطء، ويحوّل ضوؤه الماء إلى اللون الأحمر، ما يجعله يبدو كما لو أن الماء مطليّ بالدم. لو كان بعضهم على دراية بالكتاب المقدس لعرفوا أن معنى إريتريا هو «الحمراء» وكانوا قد فهموا أنهم موجودون الآن في البحر الأحمر، أو لكانت مشاعرهم قد طغت وجاشت عواطفهم وهم يستعيدون مديح النبي موسى لعظمة الله. أخيرًا، ظهر القمر بالكامل وأضاء البحر كله، فخلق ألوانًا جميلة. بدوره ومثل قطّ أليفٍ راضٍ عن طريقة

فركِ جسمه، أعاد البحر ما أبداه القمر من لطف من خلال الكشف عن موجاته المهدّئة. القمر أصبح الآن أكثر إشراقًا، وأكثر إضاءة للبحر. وعندما سقطت أشعته على المجندين والسفينةُ تبحر بهم، بدا القمر يتحرُك أيضًا بالوتيرة نفسها، كما لو كان مشدودا إليها بحبل غير مرئي. أعني، أنه بدا للمجندين أن القمر يتحرك بالفعل. المجندون، وخاصة الذين جاءوا من الأراضي المغلقة غير الساحلية من إثيوبيا كانوا في حالةٍ من الرعب وظنوا أنهم يحلمون. لكن بالنظر إلى اتساع البحر، فاللحظةُ التي يتحوّل فيها الظلام إلى النور، لا يمكن إلا أن تكون واضحة للعقل الذي يقدّر الجمال والروحانية. فمن بين الأشياء التي خلقها الله، يظل البحر أكثرها روعة، حيث تظهرُ فيه عظمته التي لا حدود لها. ولهذا السبب، يفكر الحكماء في بلدي ويقولون، «بلدي بسيطٌ ومتخلف بالمقارنة مع بقية ممالك العالم لأنه يفتقر إلى البحر، وفي الوقت نفسه هذا ما يجعل الناس منغلقين وجهلة».

بعد الإبحارِ طوالَ الليل، وفي النهار والمساء التاليين، وصلوا إلى موقع قريب من مصر. وحينها بدأوا يتجادلون حول المكان الذي عبر منه الإسرائيليون البحر. قال بعضهم إن هذا هو المكان، وعارضهم آخرون. لكن على الرغم من عدم تأكّدهم من المكان إلا أنهم كانوا يعرفون الاتجاه. مثل هذا النقاش يسعدُ قلبَ الإثيوبي، هذا القلب الذي يفرح لرؤية عظمة الله ويحترم آيات الكتب المقدسة ويبجلها. من بينهم، كان المتعلمون منهم يمجّدون الله بتلاوة آيات من الجعيز. ومن بعيد أمكنهم رؤية التلال العربية يتوسطها جبل سيناء، فأخذوا يرددون، «نحيّيك بكل تواضع أيها الطور المقدس الذي تم اختيارك من بين جميع التلال الأخرى لتكون سلّمًا من السماء إلى الله.» وجثوا راكعين في اتجاه طور سيناء، فالإثيوبي دائما يبدي احتراما للأماكن المذكورة في الكتاب المقدس. على أي حال، استمرت السفينة في الإبحار وأدركوا أنهم يبتعدون عن أرضهم أكثر فأكثر، فعصفت بهم مشاعر مختلطة. الآن هم في البحر لليوم الرابع ويدخلون في الخامس. كان عمق المياه يزداد ضحالة، ورأوا المناطق الحدودية لآسيا وأفريقيا، فازدادت نبضات قلبهم، واستقبلوا الأرض: «السلام عليكِ أيتها الأرض التي تُجاورُنا وتشربُ من نيلنا».

في اليوم التالي وصلوا إلى مدينة السويس العربية وقابلهم حشدٌ من المصريين، بعضهم يرتدون جلابيب ملونة وآخرون يرتدون الكاكي. كانوا يبيعون التمور والمكسرات والحلويات. كان الأحباش مفتونين بلقائهم الأول مع المصريين وبالأنشطة التي تدور من حولهم، لأنهم لم يعرفوا سوى شعبهم، ولا يعرفون ارتداء غير ثيابهم المعهودة. لم يتخيلوا من قبل مدى تنوّع الجنس البشري ولا تعدد الثقافات في العالم. ثم غادروا المدينة إلى قناة السويس، التي كانت بحرًا ضيقًا يشبه النهر أبحرت عبره السفينةُ بسرعة بطيئة حتى وصلت إلى مدينة بورسعيد المصرية على البحر الأبيض المتوسط الذي كان أمامهم بأمواجه العالية. وعند مدخل الميناء انتصب تمثالٌ ضخم، يقف وحيدًا بملامح صارمة كما لو كان يحرس المدخل. بعد ذلك علموا أنه نصبٌ تذكاريّ للفرنسي العبقري فرديناند ديليسبس، الذي فكر في ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر من خلال حفر ممرّ مائي. لقد زاد استغرابهم ورعبهم من عديد الأشياء الجديدة التي واجهوها، بما في ذلك المباني العالية والشوارع المضاءة التي تعج بالناس والسيارات وعربات الخيول. عندما دخلوا البحر المتوسط ، كانوا ما يزالون قادرين على رؤية الطبيعة الأفريقية على جانبهم الأيسر، وفي الواقع، تمكنوا من رؤية مدينة الإسكندرية لكنهم لم يتوقفوا. كانوا سيفرحون لزيارة

الإسكندرية والإشادة بها، وعندما رأوها ذلك من بعيد قالوا لأنفسهم، «هذه هي المدينة المقدسة وموطن بطريرك الكنيسة القبطية، بطريرك الإسكندرية ماركوس». لكن الأكثر إثارة هو ملاحظة كيف أن الأحباش انبهروا مرة أخرى لرؤية مقرّ البطريرك (كالمعتاد يركزون على جانب الخير) لكنهم كانوا يجهلون شرور بعض البطاركة الذين تم إرسالهم من المكان نفسه إلى إثيوبيا وتسببوا في الكثير من الأذى للناس.

بعد ذلك توجهوا داخل البحر لفترة وجيزة، قبل أن يبحروا مرة أخرى على طول الساحل الأفريقي للوصول إلى المدينة الأسطورية المسماة درنة والتي هي وجهتهم النهائية. الآن عرفوا أن الوقت قد حان عندما يتم اختبارُ رجولتهم ويلقى العديدُ منهم حتوفهم. نزلوا من السفينة مثقلين بالألم والخوف، وبدأوا في المشي على رمال الصحراء الليبية الملتهبة، وبعد فترة توقفوا ونصبوا خيامهم، واستلقوا للراحة. لقد أتعبتهم رحلةُ البحر بالفعل فناموا بسرعة. وفجأة انطلق صوت داخلي مجهول يخترق عقول المجندين. «يا أبناء وطننا الأعزاء الذين لم يأتوا إلى هذا المكان ليستريحوا. خذوا قسطًا من الراحة الآن فأنتم بحاجة لها. لأن كثيرا من العمل والمشاق في انتظاركم في هذا البلد الحار والملتهب. فالليبيون يراقبونكم من الأفق ويقولون لبعضهم البعض، هل رأيتم هذا الكلب الحبشي الذي باع حياته مقابل المال! فليكن. احذروا أيها الأحباش؛ الليبيون ليسوا أعداءكم، فهل ستكونون قادرين على التعرف على عدوّكم الحقيقي؟ وماذا سيقولون لكم؟ أما الآن حاولوا فقط أن تستريحوا».

الفصل الثالث

في أعماق البرية

من يخوض على أرضٍ أجنبية معركةً ليست معركته
وليس من أجلِ عائلته أو شرف وطنه
فعندما يُحتضر بفعل رصاصةٍ من عدوّ غاضب
لا يمكنه عندها أن يقول، «أوه! يا بلادي العزيزة
ها هي الحياة التي أعطيتِها لي، وها أنا أعود إليك»
لأن هذا الشخص يموت مرتين،
ويذهب إلى جحيم أبدي.

هذه الأبيات للشاعر الإيطالي الشهير ليوباردي. لكنها تبدو كأنها كُتبت خصيصا لمجندي الحبشة. بعد عبور البحار، هبط المجندون الآن في بريّة حارة وجافة تاركين وراءهم أراضيهم وعائلاتهم وأقاربهم وأصدقاءهم. كان تواكوبو يسأل حائرا، «يا صديقي العزيز، هل تعتقد أن الناس يعيشون في مثل هذه الرمال الجافة؟» فيجيبه أحدهم، «ماذا يمكنني أن أقول؟ وأنا مثلك أنظر حيثما تأخذني عيناي. فكيف لي أن أعرف؟». ثم يصمتُ الاثنان، بل الجميع كانوا صامتين. باستثناء الهمسات والجمل المبتورة، لن تسمع أي أغنية أو كلمة ذات معنى في أوساط المجموعة بأكملها.

الشعورُ بالصدمة والحزن واليأس والندم بدا واضحًا على وجوههم. كما كان منظر الصحراء طاغيا على نفوسهم وعلى المكان. لم تكن هناك شجرةٌ واحدة أو عشبة واحدة، ناهيك عن الماء. ولا يمكن للمرء أن يتحرك في أي اتجاه يسارًا أو يمينًا أو أماما أو خلفا إلاّ ليجد نفسه محاطًا دائمًا بالرمل والحجر والحصى وأكوام من الغبار. المكان عبارة عن مساحة شاسعة كما البحر، لكنه أكثر عدوانية. ففي البحر يمكنكَ رؤية الأسماك والاستماع إلى هدير الأمواج. لكن هنا لم يُسمع نقيقُ حتى طائر واحد، ولا شوهد أيّ طائر في هذه الصحراء. ومع سماء صافية مفتوحة، كانت المنطقة أشبه بفرنٍ ساخن. كان الغثيان الناتج عن هذا الحريق الدائم وغياب النسيم، يجعل المرء يتساءل عما إذا كان في أرض الحياة أو الموت. يا له من بونٍ شاسع، عندما تنظر إلى أرض إثيوبيا الخضراء، والعاصفة بالرياح، وكثيرة الخصوبة حيث تتدفق فيها جداول المياه. كلُّ المجندين كانوا يقولون الآن، «أستحقُّ هذا، لأنني أردتُ القدوم إلى هنا!» ولكن ليس هناك ما يمكنهم فعله حيال ذلك سوى الشعور بالشفقة على أنفسهم.

استيقظوا من نومهم القصير وهم يتصببون عرقا. وبمجرد أن تم إطلاقُ بوق المغادرة، قاموا بطريقة ما بمسح عرقهم وبدأوا في المشي ببطء نحو مكان في عمق البرية. لكن أقدامهم كانت تتألم من صهد الرمال، وحاول البعض أن يقوسوا أقدامهم قدر استطاعتهم، بينما قام آخرون بالقفز كوسيلة لتحمل الحرارة تحت الأقدام. أولئك الذين يمتلكون الأحذية كانوا يرتدونها، ومن لم يملكوها كانوا يرتجلون بلف ّقطعة قماش ومناديل حول أقدامهم، لكن كل ذلك لم يُجد نفعا. فلم يكن الحذاء الملفّق مناسبًا لتلك الحرارة الحارقة. كان الرمل مثل النار المتوهّجة، مع حُفرٍ الرماد الساخن في كل مكان. وأتذكر ذات يوم أنني وقعتُ في إحدى حفر الرماد الحار فغاصت قدماي حتى ركبتي. وغطّتهما إصابات وحروق. أيّ شخص مر بهذه التجربة مثلي سيعلم ما أعنيه؛ وأولئك الذين لم يخبروها، يمكنهم التفكير فيها بقلب مفتوح. فلمثل هذا الجحيم كان يُرسل مواطنونا، ليس ليوم واحد، ولكن للعيش هناك لمدة عامين. لا يمكن للأحذية، ولا القماش الذي وضعوه لصنع الأحذية، أن ينقذهم من الحرارة، لأن الرمال التي تدخل إلى أحذيتهم تجعل القدم التي تغطيها عارية. يا إلهي. ماذا يمكن أن يقال؟ كان مدمِّراً لهم رؤية الغضب الذي صُبّ عليهم.

هناك مثلٌ مأثور في التغرينية يقول: «الضباعُ التي تضحك عند الفجر لا بد أن تسبب الخراب عند الغسق». ذلك لأن البداية كانت مؤلمةً بالتأكيد، وبدأ المجندون يسألون بعضهم البعض كيف سيكون الحال لمدة عامين إن هم بدأوا يعانون الآن بالفعل. سنتان! سنتان في مثل هذه الحرارة، في أرض الجحيم، مع رياح رهيبة تهبّ طوال الوقت! كانت الرمالُ الناعمة تهب بلا توقف فتدخل في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ما جعل حياتهم بائسة من خلال تسرّبها إلى أجسادهم من خلال أكمامهم ورقابهم فتجعل أجسادهم شديدة الحرارة. ونظرًا لأن الرمل كان دقيق الحجم فأخذ يصل حتى إلى بطونهم. كل ما يمكن أن يقال إنه ربما يكون من نوع الرمال الناعمة نفسها التي يحملها الضباب الذي يأتي أحيانًا إلى أرضنا، فيحرق الأجساد، ويدمر مراعينا ويُمرض مواشينا. هل ترى؟ كيف يمكن لعاصفة رملية شديدة الحرارة – حتى بعد أن قطعت مسافة طويلة وتباطأت بسبب الغطاء النباتي والطقس المعتدل – أن تسبب الجفاف والمرض عندما تصل إلى وطننا — وأنها ستؤثر على شخصٍ في وسط المكان، حيث تُقلع من الأرض المشتعلة، وحيث لا توجد شجرة واحدة يُستظل بها؟ على أي حال، من يدري كم منهم أصيب بالمرض؟

سافر المجندون طوال النهار واستراحوا في المساء. كانت أقدامهم تحترق وتمتلئ بالبثور والقروح. ناموا على الرمل دون أيّ فراش أو غطاء، وارتدوا ملابسهم، وذخيرتهم مربوطة إلى أجسادهم. بالنسبة للقادة الإيطاليين الذين ركبوا البغال طوال اليوم، فقد نُصبت لهم خيمةٌ لحمايتهم من برد الليل والعواصف الرملية. كما جُهزت لهم أسرة وزوّدوا بحاجتهم من المياه. ومن كان يعتني بهذه التجهيزات؟ ليسوا سوى الأحباش البائسين الذين يعانون الكثير. أليس من الواضح أنّ المجندين هم الأكثر حاجة للعون والمساعدة؟ لا، كان الأحباش هم الذين قُدّر لهم أن يقفوا بجانب الإيطاليين وهو يتناولون العشاء، بعد استعبادهم طوال اليوم. وإن كان الأحباشُ أقل قيمة في أذهان الإيطاليين، فمن غيرهم سيجهّزُ لهم خيولهم ويحزم بضائعهم في صباح اليوم التالي؟ حسنًا، هناك أشياءٌ أكثر إثارة للدهشة. عندما يقع الاختيار على أحد أبناء الحبشة كمشرفٍ متميزٍ لخدمة رجل أبيض ما، سواء كان ذلك بترتيب سريره، أو إعداد سيفه وأسلحته، أو طبخ الطعام، أو إشعال غليونه، كان

هذا الحبشي يظنّ أنه وصل إلى سابع سماء أعلى من زملائه. لذا فهذا الشخص عديم النفع الذي يتبعُ بغل السيد، ويتشبع برائحة روثه، يعتقد أنه يحوزُ تميزًا على أصدقائه لمجرد أنه وضع قبعةً على رأسه. هكذا، وبينما يقضون ليلهم محترقين بحرارة النهار، ومشبعين بالرمال التي تحملها الرياح، ومُعرّضين لرطوبة الليل، كانوا يستيقظون في اليوم التالي ويواصلون المسير. يمكن لأيّ شخص رؤية وجوه المجندين وقد بدت ملوّحة، عيونهم حمراء، والشفاه مشققة. هؤلاء الشباب الإثيوبيون، الذين كانت وجوههم تلمع من قبل كما لو تم فركها بالزبد، تحولوا إلى مثل هذه الأجسام الهزيلة في يوم واحد. كان من الصعب الاعتراف بهم كإثيوبيين في ذلك الوقت، وإنما كأشخاص عديمي الفائدة من أرض ملعونة. من ناحية أخرى، كان الناسُ في الوطن يفكرون في هذا الأمر ويصرخون، «يا كهنتنا، لمَ لا ترفعوا أصواتكم؟ فلم يعد بإمكاننا العثور حتى على شابٍ واحد هنا؛ كلهم ذهبوا إلى طرابلس».

وفي هذا الوقت تحدث صوت داخلي إلى توكوابو. «أوه، أيها المسكين توكوابو! كان هناك الكثير من الحليب للشرب، والكثير من الزبدة للأكل في وطنك، لكن الآن لم يتبق لوالديك أحدٌ ليورثاه. وها أنت تموت من الجوع وتذوي بعيداً عنهما وعن الوطن، وبعد عودتك من رحلاتك سترحّبُ بك عائلتك بابتسامة وتمطرك بالبركات والفرح الأبدي. في بيتك اعتدت الحصول على الماء الساخن لغسل القدمين، والحصول على البيرة أو شراب اليانسون لريّ ظمأك، ولديك فراش ناعم تنام فيه بقلبٍ مليء بالفرح، لكن الآن إلى أين ستذهب بعد قضاء اليوم كله في الكدح؟ يقولون، «لا يجب أن تعود إلى زوجة سيئة بعد قضاء اليوم مع ثور حرون». وهذا ما يحدث لك الآن. لن تجد أيّ شخص سعيدا للترحيب بك، ولا أحدا لتحضير عشائك، ولا أحدَ يساعدك على النوم. وعندها تتذكرُ الحياة الرغدة التي عشتها مع عائلتك. وترغب في الحصول عليها من جديد، ولكنك هذا غير ممكن الآن. وبالتالي، ستبذل قصارى جهدك لمحاولة نسيان هذه الرغبة».

بعد أن خيّموا ليلاً لليوم الثاني (الذي كان قاسيًا مثل اليوم الأول) ساروا في الصحراء لمدة سبعة أيام — جائعين، قد نال منهم الظمأ، ويعانون من الحرارة الحارقة والعواصف الرملية. هذا صحيح، فقد أطلقوا على هذا المشي «مسيرة» وهي كلمة جديدة في التغرينية اخترعوها كدليلٍ على تجربتهم المرهِقة. ثم سرعان ما كانوا قريبين من أراضي العدو. قائدهم الإيطالي الجالس على ظهر حصان في وسطهم، تحدث إليهم بصوت عال. «أيها العسكر الإريتريون الأسُود. أولئك الذين ستقاتلونهم الآن مجرّدُ حفنةٍ من الرعاة. ربما تكونون خائفين منهم بسبب بشرتهم البيضاء. لكنهم ليسوا مثلنا. لإنهم لا يملكون أسلحة، ولا لديهم الكثير من الذخيرة. ليس لديهم مناظيرُ مثلنا، ولا لديهم قذائف الهاون مثلنا. نحن فقط البيض الشجعان. نحن أسيادكم الإيطاليون. وعليه أطلقوا عليهم الرصاص ولا تخشونهم. وإذا وجدنا عندهم الماعز أو الجمال أو الماشية أو الحمير أو الأغنام، سنعطيكم بعضها لتذبحوها وتأكلوا منها. لكن ويلٌ لمن يجدَ الذهب أو الفضة أو ما شابههما وتسوّل له نفسه أن يحتفظ بها لنفسه. سأجلد بالسوط مؤخرته العارية بخمس وخمسين جلدة أمام الجميع. والآن، هل سمعتموني؟! كل الغنائم التي نجدها حقٌّ لي. فأنا سيّدكم؛ وكل ما تجدونه تسلموه لي. يجب أن تشعروا بالامتنان والتميّز للقتال تحت الراية الإيطالية. نحن الأمة الإيطالية العظيمة. لدينا السفن والقطارات والأسلحة والطائرات. ولهذا السبب يجب

أن تقاتلوا جيدًا من أجلنا.» ثم انتهى بالقول إنه يجب عليهم أن يردّدوا جميعًا وراءه وهو يصرخ «تحيا إيطاليا، ويعيش مليكنا إيمانويل!»

هذا ما قيل لشباب الحبشة أثناء التحضير للحرب. حسنًا، لقد كانوا محضَ مرتزقة. أليسوا كذلك؟ سيكون من الصعب عليهم أن يتوقعوا سماع كلماتٍ أفضل مما قيل لهم. عندما كان القائد يتحدث إليهم، ونسي أنه كان يخاطب الأحباش الذين لديهم تاريخ طويل من المقاومة ويملكون الصدق في القلب ورجاحة العقل، على عكس بعض الأفارقة الآخرين ممّن ليس لديهم فخرٌ بتاريخهم وببلادهم. نسي ذلك القائد أن جنود الحبشة كانوا يقاتلون لأنهم يبحثون عن معاني الشجاعة والبطولة، وليس من أجل حفنة من المال.

نعرفُ أن الجندي الذي يستعدُّ للحرب، لن يقاتل بشجاعة إن لم يكن دفاعا عن أمن ورفعة بلاده ووالديه وزوجته وأطفاله. لكن لا يبدو أن قائدنا الإيطالي لديه أيّا من هذه المفاهيم. لقد عامل جنوده وكأنه جمع أطفالا من مكان مجهول للقيام بالأشياء من أجله، وفي الأثناء كان يوبّخهم ويكذب عليهم، ويثني عليهم في بعض الأحيان. نعم، لقد عاملهم كما لو كانوا أطفالًا، وتفاخر أمامهم بشجاعة إيطاليا. وهكذا، عندما طلب منهم أخيراً أن يصرخوا «تحيا إيطاليا» فأولئك السذّج الذين لا يفكرون كثيرا رددوا الهتاف بصوت مرتفع ورخيم، بينما الحكماء منهم، ومن بينهم توكوابو، شعروا بغصّة في حلوقهم وسكبوا دموعا حزينة عندما أدركوا ما طُلب منهم للتّو. لقد شعر الحكماء من جنود الحبشة بالخجل عند التفكير في هؤلاء البدو الرعاة الذين كانوا يستعدون للدفاع عن بلادهم ضدهم. لم يكن سكان الصحراء جيدين بشكل خاص في الحرب. وكانوا يفتقرون إلى الأسلحة والذخيرة، كما لم يكن لديهم ملكٌ أو رئيس لقيادتهم. ومع ذلك فقد بذلوا قصارى جهدهم لإنقاذ بلدهم من الأجانب. من ناحية أخرى، كان من الغريب مشاهدة أبناء الحبشة الذين لم يفعلوا شيئًا في البداية عندما تم الاستيلاء على أرضهم وانحنوا للإيطاليين كالكلاب (كما لو أنّ ذلك لم يكن مخزيا بما فيه الكفاية) ولكن نراهم الآن يستعدون لمحاربة هؤلاء الليبيين الذين أرادوا فقط الدفاع بلادهم. كان الأحباشُ يقاتلون من أجل الذين جاءوا للاستعمار وجعلِ الآخرين أدوات لاستعمار الجيران الأفارقة، دون أي شيء مفيدٍ لبلدهم أو مجتمعهم. قد يعتقدُ البعض أن محاربة الليبيين نيابة عن الإيطاليين وإبادتهم من على وجه الأرض أمرٌ جائزٌ لأن العرب والأفارقة السود بينهم عداوةٌ تاريخية. لكن ما يجري الآن سيؤدي في يوم من الأيام إلى الوقوع في المأزق نفسه. فإذا جاءوا إلى بلدنا في يوم من الأيام لقتالنا بقيادة فرنسي أو إيطالي ما، ألا يعلم أهل الحبشة أنّ الليبيين سوف يقومون بالانتقام؟ ألا يعلمون أن الليبيين سيخبرون أطفالهم جيلًا بعد جيل، أنهم مهما نسوا، فلا يجب أن ينسوا الدماء التي أراقها الأحباش؟ وأن إراقة الدماء هذه ستستمرّ إلى الأبد؟

وبينما كان توكوابو والآخرون يسيرون نحو «العدو» الليبي، كان الليبيون يستعدون لمحاربة المرتزقة السود «عبيد مصوع» كما أطلقوا على المجندين. هؤلاء الليبيين كانوا من البدو الرحل، مثل التيغري والساهو في بلادنا الذين يرحلون من مكان إلى آخر بحثا عن الخضرة لرعي مواشيهم من الحمير والجمال والماعز والأغنام والخيول. كما كانت خيول الليبيين

مشهورة بالعدو السريع مثل الريح دون كلل، وسميت «بالصلبة» لقوتها. لكن الجمل هو الأكثر فائدة لهم. فهي التي تحمل كل أغراضهم، ولا تعاني كثيراً من العطش (يمكن أن تستمر دون ماءٍ لمدة شهر) ويحمل الجملُ صاحبَه عبر المناطق القاحلة إلى أي وجهة يريد.. وبما أنه قيل إنّ النبي بارك هذا الحيوان، فقد تم الحفاظ عليه أيضًا لأسباب روحية. ولهذا لم يحافظ المسيحيون في بلادنا على الإبل، لكن المسلمين فعلوا ذلك. كما اعتُبر أنّ أيّ مسيحي شرب من حليب الإبل، فقد اعتنق الإسلام. أتذكّرُ ذات يوم عندما كنتُ صغيرا، وقابلتُ رجلاً يرعى قطيعا من الإبل، ورأيته يحلبها ويشرب الحليب من وعاء. ولأنني فضوليّ، اقتربت منه وسألته إن كان حليبُ الإبل طعمه جيدًا. فقال: «بالتأكيد» وقدّم لي شيئا منه. فرشفت من الوعاء، ولكن عندما بدأت في البلع شعرت بعدم الارتياح وبصقته. لم يكن الرجل سعيدا على الإطلاق ببصق اللبن المقدس، وقال «آها» وهو يعضّ شفته. كان سيُنزل بي غضبه لو كنّا لوحدنا.

أما الأسوأ فقد حدث لاحقًا. عندما وصلتُ إلى المنزل، وكما لو أنني فعلتُ شيئًا رجوليًا أخبرت أمي وأختي عن الحادث فأبديا استياءهما الشديد مني. أمطراني بالشتائم، وصاحا في وجهي بأشياء مثل «أنت أحمق! أنت أحمق! أنت لا تقوم بأي شيء جيّد!» وما إلى ذلك. طلبتُ منهما أن يشرحا لي لماذا يُعتبر ما فعلته خطيئة، أو لماذا كانتا مستاءتين للغاية. وكمسيحي، بالطبع كانت لديّ بعض المعرفة بالإنجيل، وجادلتهما عن طريق الاستشهاد بآيات من الكتاب المقدس تقول «اقبل ما يُقدَّم لك» و «ما يخرج من الفم هو الذي يجعل الشخص نجسًا، وليس ما يدخل فيه». فعلت والدتي وشقيقتي قصارى جهدهما لتقديم أمثلة مضادة لدحض حجتي وقالتا لي إن أسوأ إساءة عربيّة يذكرها أي حبشي عائد من أسر العرب هي إجباره على شرب حليب الإبل. وكانت هناك حاجة إلى الكثير من الصلاة والتطهير الشعائري بالماء المقدس من قبل أولئك الذين شربوا الحليب. لذلك قالا لي، «يجب أن تفكر بجدية فيمن تكون الآن، لأنك شربت حليب الإبل، دون أن تكون جائعا أو مجبرا». بسبب تعليم أهلي، عرفتُ أنه يمكنهم تحمّل أشياء كثيرة؛ لكن بعد أن شعرت بقلق أمي الشديد حول هذا الأمر، أدركت أيضًا أن الحال يمكن أن ينتهي بها لإرسالي لمدة أسبوعين لتطهيري بواسطة الغسيل بالماء المقدس في دير أبا ميتاي أو أيّ شلال مقدس آخر. فأخبرتها أنني في الواقع قد ذقتُ حليب الإبل فحسب ولم أبتلعه. فقالت بعد أن شعرت بالراحة، «أنا آسفة يا ولدي العزيز لغضبي عليك،» وقبّلت جبيني. وهكذا تصالحنا على الفور. كلّ هذه الحكاية تُظهر مدى تخوّف قوم ها بِس ها من حليب الإبل. ومن ناحية أخرى لم نكن نعلم أن هذا الحليب هو طعامهم الأساسي في طرابلس. لم يتمكن بدو الصحراء من زراعة العديد من المحاصيل فليس هناك قطرةُ مطر واحدة في تلك الصحراء القاحلة في جميع الفصول، في الصيف أو الشتاء. وأعتقد أنه لو لم تكن لديهم حيوانات، لكانوا لقوا حتفهم. لكن الله لا يتركك بلا شيء. في المناطق التي يوجد بها القليل من الماء، فهم يزرعون النخيل، وثماره هي إحدى الأطعمة المفضلة لديهم. كما يقومون بصنع مشروبٍ مسْكرٍ عن طريق استخراج بعض السوائل من النخل. ولكن يُقال أيضًا أنه إذا تمكنت من رؤية واحة ما، وهي المنطقة التي تتوافر فيها المياه بكثرة، فستسأل نفسك ما إذا كنت على الأرض أو في الجنة. هؤلاء الناس يعيشون في الغالب حول هذه المناطق وهنا يوجد التجار أيضًا.

العرب هم من نسل إسماعيل ابن هاجر، محظية إبراهيم. معظمهم ذوي بشرة حمراء، لكن الحرارة غمقت جلودهم قليلاً. وهم قومٌ يميلون إلى الوسامة وطول القامة. ونسائهم ترتدين ثيابا مثل التي ترتديها نساء أراضينا المنخفضة، وبما أنهن مغطّيات دائمًا، فقد كنّ أفتحَ بشرة من أزواجهن. أما شيوخهم فلهم لحى طويلة، وبدا أطفالهم ممتلئين لتغذيتهم بالحليب. يغطى الرجال أجسادهم بالثياب من الرأس إلى أخمص القدمين ويلفّون عمائم حول رؤوسهم. كما يرتدون ملابس قطنية فوق كل ذلك. كان من المستحيل أن ترى عربيا أو بدويا يتحرك دون شيء في يده. فإن ليس باستطاعته امتلاك بندقية (التي يعشقونها أكثر من أي شيء آخر)، يكون لديه إمّا رمحٌ، أو سيف أو عصا. والموسرون من الرجال يركبون الخيول.

ولكن بالنسبة لقومنا التيغرينيين، فقد اشتهر العرب بسلوكهم السيئ. كانوا غير جديرين بالثقة، وعُرفوا بالغدر والحقد. كانت السمعة التي تلاحقهم أنهم قتلةٌ لا يرحمون إذا أتيحت لهم الفرصة. ووفقا للصورة النمطية التي يروّجها الإيطاليون عنهم، فالقول بأن عربيًا سيحترم الاتفاق سيكون مبالغة. وإذا تركتهم ووضعت الثقة بهم لأنهم أعطوك وعدا، فهم إنما يضحكون عليك. وكل هذا ما يقوله عنهم الجنسُ الأبيض.

ولكن لتحقيق التوازن مع هذه السلوكيات السيئة كان لديهم أيضًا العديد من الأشياء الجيدة. لقد كانوا حريصين للغاية على التمسك بدينهم. لا يفوّتون صلواتهم لأي سبب من الأسباب. فحتى لو كنت منخرطا في حديث معهم سوف يتركونك ويذهبون للصلاة. وما من مجتمع غيرهم يفعل ذلك. أيضا هم معروفون بالكرم وحسن الضيافة. لكن أفضل سلوك عندهم هو حبّهم لحريتهم. كما كانوا يعتمدون دائمًا على إلههم، وبالتالي لا يعترضون على أي شيء قد يحدث لهم باعتباره من عند الله.

كان العربُ معروفين بكونهم مُهمِلين عندما يتعلق الأمر بالعمل لتلبية احتياجاتهم الأساسية من الغذاء، وهذا الإهمالُ ينبع بلا شك من وراثة ما يُسمّى بالخمول. ومرة أخرى، هناك بعض القصص النمطية والافتراءات حولهم، والتي نسختُها من أحد الكتب، وفي الواقع هو كتاب باللغة الإيطالية. وتروي إحدى القصص أن رجلا كانت زوجته على وشك أن تُنجب طفلاً فذهب إلى نجّار وأعطاه المال ليصنع سريراً للطفل. وافق النجار وأخذ المال ولكن عندما عاد الرجل، لم يكن السرير المتفق عليه جاهزا. ثم عاد للمرة الثانية والثالثة، لكن السرير لم يُصنع. وُلد الطفلُ وترعرع ووصل إلى سن العشرين، ثم بعد أن تزوج أخبر والده: «ستلد زوجتي قريبا، وأحتاجُ إلى سريرٍ كي ينام الطفل فيه.» فأجابه الأب: «قبل أن تولد، كنت قد دفعتُ لنجارٍ كي يجهّز لك سريرًا. وربما يكون قد انتهى منه الآن فاذهب وأحضره منه». وعندما ذهب الابنُ للاستفسار عن السرير الذي دفع والده ثمنه، أجابه النجار بغضب «لماذا تزعجني بهذه المشكلة، لا أحبّ القيام بأشياء على عجل. وإن كنت لا تريدني أن أصنع لك سريرا، ها هي نقودك فخذها». لقد فشل في القيام بعمل كّلّف به لمدة واحد وعشرين عاما. وقصةٌ أخرى تقول إنه في أحد البيوت كان الزوج وزوجته جالسين ويشربان في المساء. أعدّت المرأة عشاء شهيا، لكنها نسيت إغلاق الباب وطلبت من زوجها إغلاقه فقال: «اذهبي بنفسك وأغلقيه إذا أردتِ». تجادلا لفترة طويلة، وكل منهما يقول للآخر «لماذا لا تغلقه أنت؟» واقترح الزوج أخيرًا على زوجته فاطمة أن يلتزما الصمت وأول

من ينطق بكلمة هو من يغلقُ الباب فوافقت. وبينما كان الطعام أمامهما، ظلا صامتين دون أن يتحركا ولو قليلاً. سرعان ما جاء أحد المتسولين قائلاً: «الثروة هبةٌ من الله، فأعطوني شيئا من الصدقة». لكن لم يرد عليه أحد منهما. صبّ اللعنات على سوء سلوك هذه الأسرة، ثم دخل إلى البيت وأكل الطعام الذي قدّره الله له حتى شبع. أكل اللحم وعلّق العِظام على عنق المرأة. لم يتحدث أيّ منهما بينما كان كل هذا يحدث. ثم غادر المتسوّل ببطن ممتلئ. وفي وقت لاحقٍ جاء كلبٌ ودخل المنزل عندما رأى الباب مفتوحا. ومع عدم إخباره من أحد بالذهاب بعيدا أخذ الكلب يتحرك ويتشمّم في أرجاء المنزل، ثم اقترب منهما. وعندما أدرك أنهما لا يتحدثان، وبغريزته أراد الكلب أن يأكل العظام المعلقة على عنق المرأة. لكن المرأة طاردته وصرخت فيه للابتعاد عنها، وعندها ضحك الزوج وقال: «لقد تكلّمتِ أوّلا فاذهبي وأغلقي الباب» فأذعنت وذهبت لإغلاقه. أمضيا ليلتهما جائعين يتلوّيان ويفركان بطنيهما. وفي الصباح قال زوجها ساخرًا، «يا سيدة فاطمة، ما كان يجب عليك الدخول في رهان مع الأفضل منك، لم أنطق بكلمة، لكنك تحدثتِ.» فأجابت: «نعم، أنت محق فقد تحدثتُ، ولكن لو لم يأت الكلب، لما قلت أي شيء.» وهكذا أمضيا الليلة جائعين لأنهما كانا كسولين في الذهاب وإغلاق الباب.

وبالمثل أيضا، عندما ذهب رجل عجوز لجمع التين الشوكي، لكنه كان شديد السخونة من صليْ الشمس، فصلىَ وقال لنفسه إنه سينتظر مع ربّه حتى تبرد الشمس، لذا جلس تحت الظل. ثم رأى امرأة تمرّ وهي منخرطة في البكاء. سألها عن سبب بكائها فأجابت: «لا يمكنني إنجاب طفل. وزوجي يضربني دائمًا ولا يريد أن يطلقني كذلك». أخبرها الرجل أنه سيحرصُ على أن تُنجب طفلا، «إذا ما جمعتِ لي التين الشوكي». وافقت المرأة وذهبت لتقطف له الثمار، فأخرج سلاحه وأزال عنه بعض الأوساخ باستخدام سكينه. وعندما انتهى وعادت المرأة قال لها «خذي هذا وامزجيه بالماء ثم اشربيه» وأعطاها إياه. شربت المرأة المزيج، وثبت أنه ليس ترياقا للإنجاب، ولكنه قاتلها. فتخيّل معي إلى أين يقودهم الخمول.

هذا ما قيل عن صفات العرب وتصرفاتهم. لكن بالنظر الآن إلى كيف يقوم الليبيون بتسليح أنفسهم والاستعداد للقتال عندما قيل لهم إنّ هناك جيشًا غريبًا قادمًا لمهاجمتهم، لا يمكن لأحد بعد كل شيء، أن يصدق هذا الكسل المفترض عندهم. لقد كان شيئا مختلفًا تمامًا معرفة الأنشطة التي يقومون بها في هذه الأوقات. ففي وسط الأغنام والماعز الصاخبة، هناك الذين كانوا يعدّون أسلحتهم، ويشحذون سيوفهم، وينظفون بنادقهم، ويخيطون أي مواد ممزقة لسلاح الفرسان. وفي فوضى الحرب، يمكن للمرء أن يرى النساء يمسحن دموعهن أثناء إحضار الطعام والأسلحة لرجالهن المقاتلين. يمكن للمرء أيضا أن يرى الأطفال يبكون بينما آباؤهم يستعدون للذهاب للحرب والأمهات تبكين كذلك. من ناحية أخرى، يمكن للمرء أن يلحظ أولئك الأبطال الليبيون المسلمون يتعهدون بمحاربة «الكفار». ومشاهدة الشيوخ يشجعون أبناءهم على القتال، بينما يصلى الشيوخ منهم وهم يولون وجوههم نحو «مكة» المدينة المقدسة للنبي محمد لتقديم المساعدة لهم وتكليلهم بالنصر (مع صهيل الخيول في الخلفية) لقد كانت تلك تجربةٌ مؤثرة لا يمكن لأي شخص يتمتع بقلب بشري بين ضلوعه أن يقف حيالها غير مبالٍ.

بعد تلك التحضيرات يحينُ وقت المغادرة. فيودّعون أولادهم وآباءهم وأقاربهم على أمل اللقاء بهم. أولئك الذين يملكون الخيول ركبوها؛ وغيرهم انطلقوا سيرا على الأقدام. وكان الشجعان منهم يتقدمونهم، ويغنون «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ثم توقف أحدهم وتحدّث إلى المقاتلين الليبيين فقال: «تشجعوا واربطوا على قلوبكم! فمجيءُ الكفار لغزونا ليس أمرا عاديا وطبيعيا؛ ومن المعروف أن أمّة محمد هم من يذهبون إلى أراضٍ أخرى لحكمها ونيل غنائمها، وليس الآخرون من يأتون إلينا للحكم والغنيمة. لا يجب أن ندع شيئًا يحدث لنا، لم يحدث من قبل لآبائنا وأجدادنا. ولا يجب أن نحيا حياة العار فإما أن نحرّر أرضنا أو نُدفن هناك. يجب أن نعود إلى أهلنا بعلامات انتصارنا، أو ندعهم يسمعون عن موتنا،». وختم بالقول: «اليوم إمّا المجد أو الهلاك». لقد جعَلتهم خطبته يشعرون بالحماسة والاندفاع، وكانوا جميعًا ينشدون أهازيج الحرب، بأصواتٍ أعلى فأعلى. لوّحوا بسيوفهم، وتعهدوا بأنهم لا يستحقون وصفهم بالرجال إن لم يسفكوا دماء «أولئك الكلاب». حتى أنهم كانوا يتذمرون فوق صهوات جيادهم في شوق ليشربوا دماء المسيحيين مع طعام الغداء. بتشجيعٍ من هذه الرسائل الملهمة، تحرك الثائرون الليبيون أسرع فأسرع، وبعد المسير طوال الليل، وصلوا إلى مسافة مرئية من الجيش الإيطالي المكوّن من المجندين. عندها أطلق قائد الجيش الإيطالي بوق الاستعداد للمعركة، وأمر بأن يصطفّ الجنود في طابورين متعاكسين، وفقًا لفنون القتال الأوروبية. على الجانبين الأيمن والأيسر، اصطف جنود المدفعية الثقيلة والمدافع الرشاشة. وبعد أن بيّن لهم مواقعهم، أمرهم بصوت عالٍ بأن يكونوا «على أهبة الاستعداد». بعد ذلك، أمرهم بتثبيت الحراب على أسلحتهم، ثم بالاستلقاء على الأرض. لكن ليس من عادتهم الاستلقاء في أرض المعركة، وبالتالي شعر جنود حبشة بالارتباك وتساءلوا عن سبب اضطرارهم للاستلقاء بدلاً من مواجهة عدوهم واقفين. كانوا في الواقع يعتقدون أنّ الخيول ستسحلهم. ولكن على الرغم من ذلك، فعلوا ما أمِروا به.

سرعان ما بدأ المجندون يشعرون بالقلق. تذكروا آباءهم وأمهاتهم، وفكروا في قراهم. وتساءلوا عمّن سيدفنهم إن ماتوا هنا، مع عدم وجود أي شخص لرعاية قبورهم. لقد تبيّن لهم مدى الحمق في مشاركة الآخرين في حروبهم بدون فائدة لبلدك. جال بخواطرهم أيضا كم هو مخيفٌ حتى القتال في أرضك من أجل بلدك عندما يمكن أن تنهي رصاصة واحدة حياتك – ناهيك عن القتال في الأراضي الغريبة من أجل قوةٍ أجنبية. في مثل هذه الظروف، لا يوجد أحدٌ، حتى الشجاع منهم، لن يرتعد من الخوف. حسنًا، في بلادنا اعتاد المقاتلون على تغطية خوفهم بالتباهي والتحريض. لكن هؤلاء المجندين لم يكونوا قادرين حتى على القيام بذلك! وذلك لأن تدريبهم على القتال تم وفقا للطريقة الإيطالية، وأولُ ما قيل لهم هو التزامُ الهدوء والثبات ما لم يأمرك القائدُ بخلاف ذلك. كان الليبيون يشعرون باختلاف عميقٍ في قلوبهم. فهم يعرفون أنهم سيقاتلون من أجل بلدهم وفي بلادهم. فإن هُزِموا، سيعرفون إلى أين يهربون. وإن أصابهم العطش يعرفون أين يجدون الماء. وإذا بحثوا عن مأوى في مكان ما، سيجدون من يقدم لهم الملاذ الآمن. كل هذه الأشياء رفعت من معنوياتهم. علاوة على ذلك، وبما أنهم مسلمون، فقد شجعهم أيضًا ما قاله لهم رسولهم محمد: أنهم سيُجزون في السماء بقتلهم المسيحيين، وأنهم سيذهبون إلى الجنة مباشرة إذا ماتوا في مثل هذه الحرب. وهكذا يبدو أن الحرب كانت بمثابة حفلة عرسٍ لهم. حتى وإن لم يكونوا في العادة ملتزمين في اتباع أوامر القرآن وإهمال تعاليم محمدٍ بطريقةٍ أو بأخرى، لكن في ذلك اليوم كانوا حريصين

على التكفير عن خطاياهم السابقة ونيل مباركة السماء لأنفسهم ولأطفالهم؛ وإن قُتلوا سيحصلون على المكافآت التي يمكن أن تأخذهم مباشرة إلى «جنتهم» المليئة بالعسل والحليب والعذراوات. ومع ذلك، عندما أدركوا للحظةٍ أنّ الموت كان قريبًا حقًا، وكأيّ كائن بشري مثلنا جميعًا (مدى خوفنا من الموت، على الرغم من أننا لا نستطيع الهروب منه عاجلاً أم آجلاً) فقد تردّدوا أيضًا.

واضعين ثقتهم وإيمانهم بمحمد، دخل المحاربون الليبيون المعركة بشجاعة وتصميم. لكنهم دخلوا القتال مباشرة ومضوا قدما في هجومهم. فلم يكن لهم قادة يصدرون الأوامر والتعليمات وبدوا مثل قطيع من الأبقار في مواجهة الضباع المهاجمة. عند تقدمهم أثاروا الغبار فأمطرهم مجندو الجيش الإيطالي المسمّون (العسكريا) بوابل من الرصاص نزل مثل المطر عليهم، فسقط منهم الموجودون في الخطوط الأمامية مثلما تسقط أوراق الشجر. أصيب بعضهم مباشرة بالرصاص؛ وسقط آخرون مع خيولهم عندما أصيبت دوابهم بالرصاص. لكن مصرع من كانوا في المقدمة لم يردع الآخرين الذين ركضوا فوق جثث إخوانهم، واندفعوا إلى الأمام، بعضهم يسقط، وآخرون يركضون مع خيولهم نحو مواقع المجندين مع الخيول التي كانت تقفز مثل النمور. وهناك، داست الخيول العديدَ من المجندين الذين كانوا مستلقين في الخنادق، وذُبح آخرون بسيوف من كانوا يصرخون «الجهاد في سبيل الله!» في تلك اللحظة أمر القائد الإيطالي العسكر «بالوقوف» على الرغم من أنهم لم ينتظروا حتى يأمرهم.

أيضا اخترق مقاتلون ليبيون آخرون الموقع من جهاتٍ متعددة. وكل من راقب القتال من بعيدٍ، ما كان ليعرف من أين بدأت المعركة، ولن يكون قادرًا على تحديد مكان المواقع الإيطالية أو الليبية التي تداخلت ببعضها البعض. يمكنُ للمرء أن يرى الناس يتحركون والخيول تقفز. وأيضا لا يمكن للمرء إلاّ رؤية وميض الأسلحة، وإطلاق الرصاص من البنادق، ويرى طبقة من الغبار. ويمكن أيضا أن يسمع صرخات الجرحى، وتفاخر القاتلين، وصهيل الخيول. كان مواطنونا الأحباش يجدون صعوبة في القتال بالسيف، لأنه لم يكن شائعًا في بلادهم. ولكن عندما رأوا أن موقفهم لم يتحسن، أخرجوا سيوفهم وبدأوا في الذبح. يمكنُ لسيف الحبشي المحني أن يقطع رَجلين أو ثلاثة رجال في الوقت نفسه. ولأن القتال بالسيوف يمكن أن يؤدي إلى إسقاط العديد من الرجال في وقت واحد، فقد أصيب الليبيون بالذعر وبدأوا في التراجع ببطء. كان محاربو الحبشة يضغطون بينما استمر الليبيون في التراجع، وبعد ذلك استداروا وبدأوا في الفرار عندما أصبح الهجوم عليهم أكثر من طاقتهم. ولكن، دعنا نقول الحقيقة هنا، ليس هناك من يمكنه الركض أسرع من الإثيوبيين، وقد قبضوا على العديد من هؤلاء الليبيين سيّئي الحظ وجندلوهم. لقد كانت لحظة مرعبة وغريبة ومحيّرة حين مشاهدة الليبيين وهم يركضون، والأحباش يطاردونهم، بينما الإيطاليون يصرخون – جميع الثقافات الثلاثة المختلفة معا، وبأساليب قتال مختلفة، اختلطت في تلك المعركة. بالنسبة لأسلوب قتال الأحباش كانت الحرب تعني المضي قدمًا مهما كانت التكلفة؛ وبالنسبة للإيطاليين، فالتعليمات تقول عليك الالتزام بأوامر قادتك حتى لو كان العدو يواجهك مباشرة، لأنه لا ينبغي لأي شخص أن يتحرك ما لم يؤمر (كما يقولون). وفوق كل شيء، لا يجب إطلاق النار مطلقا إلا بتعليمات. يقولون لك لا يجب أن تفعل شيئًا حتى لو تم ذبحك، وانتظر إلى أن يُعطوك الأوامر! بالنسبة لليبيين، فطريقتهم هي: يجب عليك أولاً الركض سريعًا نحو

عدوك، ثم، إذا ساءت الأمور فإنك حينها تركض بحياتك. باختصار، كان الأحباش يقاتلون بقوة لا تضاهى، والإيطاليون يتحركون وفقا لترتيبات المعركة، بينما قتال الليبيين من خلال العمل في تلك اللحظة وتقبّل المخاطر. ولكن لقول الحقيقة، لا يمكن لأحدٍ أن يتفوق على الأحباش في العدو، فعندما سقط الليبيون على أيديهم (كم يرثى لهم) كان يجري قنصهم مثل النمور التي في حالة سكر من شرب الدم، بينما في كل مكان آخر ركضت المجموعتان وراء بعضهما البعض مثل كلاب الصيد. في بعض الأحيان، يتوقف الليبيون عن التراجع ويقتلون ملاحقيهم من الحبش قبل أن يموتوا هم أنفسهم ميتة لا مناص منها، لكنهم عزموا على الموت بطريقة يمكنهم من خلالها الذهاب إلى الجنة التي تزخر بأنهار الحليب والعسل، كما وعَدهم محمد من قبل. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى الليبيين تكتيكٌ آخر، وهو الاختباء في كمين وقتل أعدائهم من هناك. بهذه الطريقة ذبحوا العديد من أبناء الحبشة. وفي النهاية، فرّ الذين لديهم خيول إلى برّ الأمان والذين لم يقتلوا منهم تم أسرهم. وهكذا انتهت المعركة بنصر ساحق للأحباش. لا، لقد أخطأتُ. كان النصرُ للإيطاليين.

في وقت متأخر من تلك الليلة، قام الإيطاليون بتجهيز المعسكر وإشعال النيران، والسماح لهم بتناول عشاءٍ من لحم الماعز التي غنموها. ملأ العسكرُ بطونهم باللحم وشعروا بالرضا. وكانوا متعبين للغاية فناموا حيث هم بعد العشاء مباشرة. كان توكوابو أحد الذين برزوا كبطل حرب في ذلك اليوم، وقد امتُدح من قبل أقرانه. ثم أثناء التحضير للنوم، استُدعي ليقوم بنوبة الحراسة الليلية. ولأنه خاض المعركة طوال اليوم، فقد كان مستاءً من تكليفه بالمهمة وقال لنفسه، «للأسف، هذا مثل العودة إلى زوجة سيئة بعد قضاء اليوم مع ثور حرون. فبعد التعب طوال اليوم، هل أستحق البقاء مستيقظًا في ليلة بلا نوم!؟» مع ذلك، وكجندي كان يعرف أنه لن يتم إعفاؤه من واجبه لمجرد أنه يريد ذلك، أو لشعوره أنّ قادته يتعاطفون معه، وبالتالي ابتلع ألمه وذهب للقيام بواجب الحراسة. أن تكون حارسًا ليليًا يعني أن عليك الوقوف في مكان يمكنك فيه مراقبة الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون، ويجب أن تكون حذرًا ويقظًا في حالة قدوم عدوٍ بشكل غير متوقع. وأن تكون حارسًا ليليًا يعني أيضًا ألاّ تُكتشف وأنت تتبادل الحديث مع شخص آخر، أو حتى مجرد الجلوس أو النوم. سيؤدي ذلك على الفور، ودون أي تردد، إلى إطلاق النار عليك من قبل قادتك. يجب أن يبقى حارس الليل في حالة تأهب والوقوف لمدة ساعتين سواءً كان الجو حارّا أو باردًا في الخارج. ومهما حدث، ليس من المفترض أن ينتقل الحارس من مكانه أو يتحرك. كانت هذه المهَمة مرهقةٌ ومقلقة للغاية للمجندين، وتم التعبير عن امتعاضهم فكانوا يرددون أغنية تقول: «ليبيا، ليبيا، آه يا ليبيا، ركضٌ وعمل أثناء النهار، وحراسةٌ في الليل».

خرج توكوابو للقيام بواجب الحراسة الليلية مع بعض رفاقه وتناوبوا تبادل مواقعهم. وعندما جاء دوره في وقت متأخر من الليل، حمل بندقيته، وارتدى حزام الذخيرة، ووقف عند نقطة الحراسة. ولأنه أحس بالبرد الشديد تدثر ببطانية. كان المكان شديد البرودة. لا تُسمع فيه أصوات الوحوش البرية ولا زعيق حشرات صرّار الليل. في بلدنا، لا يشعر المرء بالوحدة أبدًا؛ فحتى إن كان سماع أصوات الحيوانات البرية في الليل يبعث الخوف في الإنسان، لكن مع ذلك فالاستماع إليها يروّح عن القلب قليلا حيث تشعر بوجود شيء ما من حولك. في موقعه، كان توكوابو يقف بمفرده مثل لوحٍ من الخشب. ولم يرَ أمامه سوى مساحة شاسعة من الأرض الخالية تحيطُ به من كافة الجهات. وفي اللحظة التي تذكر فيها وطنه قال لنفسه،

«تُرى ماذا يفعل أبواي الآن؟ ربما يبكيان حينما يريان فراشي الخالي؟ وأنا هنا وحدي في هذه الصحراء في حالة كآبة. ما هذه البلاد حيث لا توجد شجرة واحدة، ولا عشب يمكنك السير عليه، ولا وميض ضوء (أو علامات نار طبخ) يمكن رؤيتها من قرية بعيدة، ولا أي أثر لأصوات الحيوانات. كل مكان تذهب إليه نهاراً أو ليلاً تجده مملوءا بالرمال، رمالٌ لا نهاية لها. وهل يسمّون هذه بلادا! لكن مهلا... فالليبيون يقاتلون من أجل هذه الأرض القاحلة. أما نحن علينا اللعنة! لم نحرّك ساكنا عندما جاء الإيطاليون للاستيلاء على أرضنا الخصبة. ليس ذلك فحسب، فقد أرشدْنا الإيطاليين مثل المكفوفين وحملناهم مثل الأطفال وسمحنا لهم بدخول وطننا، والآن ندعمُهم لغزو هذه الأرض. تركنا بلادنا تُحتل، ونحن الآن مجرّد أدوات لاحتلال بلدِ قوم غيرنا. لقد فقدنا بلادنا، ونمدُّ أيدينا لاستعمار أراضٍ أخرى. كيف كان الليبيون سيقاتلون لو أنّ لديهم أرضا خصبة مثل أرضنا؟ عندما تفكرُ في الأمر فالليبيون الذين في هذا المكان هم من البدو، وكان ينبغي ألاّ يهتموا كثيرًا، حيث بإمكانهم التحرك بسهولة تاركين هذه الأرض القاحلة للإيطاليين. لكن رغم كل هذا، لم يركعوا للحكم الإيطالي!

جال توكوابو بأفكاره أكثر، «لو أنني في بلدي، لحصلتُ الآن على قسط وفير من النوم واستيقظت. وإن كانت هناك حفلةٌ في مكان ما، كنتُ ذهبت إليها لأقرع الطبول مع أصدقائي، وسيكون هناك فتيان وفتيات يغنون مع صخب الموسيقى. سننشد طويلا في الليل العديد من الأغاني الحلوة مثل «ثق بالله ولن يحدث لك شيء» و «يا حبيبي، هل تريد مشروبًا في كوب زجاجي؟» كما كنا نتصارع بعنف في بعض الأحيان لدرجة أننا نرمي بعضنا البعض عالياً إلى فوق قبل السقوط على الأرض. كان هذا النوع من المصارعة الخاصة يسمّى «مصارعة رهبان دير ديبرا بيزن» لأن هذا الدير يقعُ عالياً في قمة الجبل لدرجة أنه يبدو كما لو أنه يطال النجوم. إذا قمت بخدعة «دير ديبرا بيزن» ورميت خصمك أثناء المصارعة، فأنت بالتأكيد تريهِ النجوم! كان هناك مصارع يدعى هايلي، والذي كان جيدًا لدرجة أنه يُلقب بالشيطان، وآخر يسمى تيولدي، وكان ماهرا جدًا أيضًا. وفي وسط هذا الصخب، يمكن سماع ضحكات الضباع ونباح الكلاب، وترى القمر منيرا وقد أحاطت به نجوم متلألئة. وحينذاك تشعر بالروعة ويرقّ قلبك. بعد المصارعة كنت تشرب الحليب وتخلد للنوم على العشب الناعم».

عندما جاءه النوم، تذكر توكوابو أين يوجد الآن، فاستيقظ من أفكاره كما يستيقظ المرء من النوم، ونظر حوله ليجد نفسه واقفاً وحيداً في الصحراء. كما وجدت الدموعُ طريقها إلى عينيه وشرعَ يغني:

«أنت تذوي هنا شيئا فشيئا،

وبدا لك الوقتُ سرمديا.

فجأة، تجدْ نفسك في الحقل الفارغ

وأنك أُلقِيت في مكان لا تعرفه

لا من أجل والدك

ولا حتى من أجل والدتك.»

فوجئ عندما أدرك أنه حافظ على الترنم بكلمات الأغنية في صمت تام. بعد فترة، جاء حارس النوبة التالية ليحلّ مكانه وبينما هما يتبادلان كلمات رمز الهوية، قال توكوابو، «لقد تأخرتَ، أليس كذلك؟» فردّ عليه الرفيق، «تعتقدُ ذلك، لكن الآن هو وقتُ التبديل». كان توكوابو شخصًا عطوفا، وعرف أن بقاء الرجل بمفرده كحارس ليلي عملٌ مرهقٌ للغاية؛ لذلك ذهب لرؤية الضابط ليسأله عما إذا كان بإمكانه مرافقة زميله في نوبة حراسته، فتأثر الضابط من تصرفه وأجابه إلى طلبه. وعندما عاد توكوابو للبقاء مع زميله الحبشي أخذ يبكي متحسرا، ويقول إن الأحباش بكلّ ما يُعرف عنهم من بطولة ومحبة لبعضهم البعض، سيكون مفيدًا لو أن ما يفعلونه هنا هو لصالح بلدهم، وليس لصالح الغرباء الذين يعملون عندهم كمرتزقة في أرض أجنبية. بقي الاثنان هناك بمفردهما لبقية الليلة، وتبادلا الحديث حتى الصباح. وكان أن ارتبط توكوابو بصداقة متينة مع رفيقه وظلاّ يتحركان معا من مكان إلى آخر، كرفيقي سلاح. معرضان لحرارة الشمس والغبار، وبدون ماء، كانا يسيران في البرية لأيام وأيام متتالية.

الفصل الرابع
العطش القاتل

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، أصدر القائد العام الأمرَ بأنّ على كل شخص أن يحزم أغراضه ويستعد للمغادرة وصرخ فيهم، «شدوا على مؤخراتكم وتحركوا!» أمّا عن ذلك القائد فقد حمل الماء على بغله، وكذلك فعل رفاقه الإيطاليون. ولكن من سيهتمّ بالمجندين؟ حتى لو ماتوا من العطش، من سيهتم حقًا؟ لكنهم بدأوا مسيرهم على كل حال دون معرفة وجهتهم. مضوا أمامهم بتثاقل ولم يتمكنوا من العثور على أيّ ماء في طريقهم. لا أثر للمياه مطلقا. لو سألت عن مكان الضابط، فسيكون في خيمته ويحافظ على ما عنده من مياه. كان لديه حرّاسٌ حول خيمته التي عادة ما يبقي صامتا بداخلها. يقول المثل «هناك أوقات يكون فيها خوض الحرب أسهل من مقاومة الجوع.» وما يثير الشفقة هو أن المجندين الذين كانوا على حافة الموت من العطش، لكنهم مع ذلك يحرسون خيمة شخصٍ لديه وفرة من الماء. لا أحد يستطيع أن يفهم مدى البؤس الذي شعر به أولئك المحتاجون إلى الحصول على شربة من الماء. وكانوا مثل ذلك الرجل الغني الذي انتهى به المطاف في الجحيم، واشتاق للحصول على قطرة ماءٍ من القديس لعازر. كانوا سيرحبون بالحصول على رشفة ماء من أي شخص. لكن أولئك الحراس الأحباش لم يكونوا هناك كامتياز لهم ليروُوا عطشهم؛ وإنما من المفترض أن يقفوا هناك ويمنعوا أيّ مجند آخر من الاقتراب من الخيمة. كلما سمعوا صوت صب الماء بالداخل، كانت قلوبهم تقفز إلى حناجرهم. وكان الأمرُ أشبه بمشاهدة كلبٍ ترتفع عيناه وتنخفضان مع حركة يدِ شخص يأكل أمامه. فبعد كل شيء، هم مثل الكلاب، إذا قارنتهم بالإيطاليين. في الواقع، كانت الكلاب تلقى معاملة أفضل، فعلى الأقل تأكل بقايا طعام أسيادها.

لا أحد يعرف ما يفعله هؤلاء المجندون الذين تم التخلي عنهم في العراء، والذين هم أشبه بالقرود التي مُنع عنها الماء. بعضهم يتحرك ذهابًا وإيابًا في قلق واضح على وجوههم؛ والبعض يرتمون على الأرض وهم يتلوّون من العطش. بينما آخرون يحفرون بأيديهم يائسين في الرمال أملاً في العثور على الماء. المساكين كانوا يظنون أنهم يستطيعون إخراج المياه بسهولة بالطريقة نفسها كما في وطنهم. لكنهم وجدوا الرمل أكثر سخونة كلما حفروا أعمق، ففقدوا صبرهم، ثم نظروا إلى السماء وصلّوا إلى إلههم في يأس، «يا إلهنا، نحن في محنة.» والقليل منهم (ليس فقط واحدا أو اثنين) يتحلّون بشيء من صبرٍ ويحاولون تهدئة البقية، لكنهم لا يجدون الكلمات المناسبة. كيف من الممكن نطق أيّ كلمة عندما يكون الحلقُ جافًا ولا أثر لأيّ لعاب لترطيب اللسان؟ شفاههم متشققة وجافة، وعيونهم غائمة، ووجوههم باهتة، وجفونهم مغطاة بالغبار. كانوا يأملون في أن يأتي نسيم الليل معه بالندى، ولكن ليس هناك نسيمٌ أو ضباب في هذه البرية. حتى لو نزلت الرطوبة

في المكان، فبدون العشب أو الأشجار تقوم الرمال الساخنة بامتصاصها كلها وعلى الفور. لذلك أمضوا الليل وقد اكتووا بالحرارة.

صدر الأمر بالتحرك مرة أخرى في صباح اليوم التالي، وسار الجنود بتثاقل شديد. كانت الشمس شديدة الحرارة بشكل لا يُطاق فزادت من سخونة الرمال، وتطاير الغبار من حولهم. شعر الكثيرون منهم بأن قلوبهم تسقط في جُوفهم، وفقد النظام والانضباط معناه. كانوا يترنّحون فيُسقِطون بنادقهم وذخائرهم. وبحلول منتصف النهار، أخذت رؤوس العديدين منهم تدور فيسقطون أرضا ويظلّون هناك، بينما الدم الأسود يتدفق من أنوفهم. ما تبقى من دم في أجسامهم أجبِر على الخروج منها بما تبقى من طاقة في أجسادهم المحتضرة. لم يستطع البعض مواصلة السير على الإطلاق وانهاروا حيث أصبحوا فيما بعد طعاما للنسور. وعندما رأى القائد العام الإيطالي ما يحدث أمامه اختفى فوق بغله، وتركهم وراءه. كان يخشى أن يقتلوه، لكن في الحقيقة لم يكن أحدٌ منهم يجرؤ على ذلك. ودعونا نقول الحقيقة، هل يجرؤ الحبشي على الثورة ضد إيطالي؟ ذلك أمرٌ مستبعدٌ كثيرا. لكن بالنسبة للإيطالي فالحبشي مثل حمار ضعيف، لا يمكنك ذبحه من أجل لحمه أو جلده، وبالتالي تتركه ليموت في الميدان حسب مشيئة الله. وهكذا هرب الإيطاليُّ الجبان الذي اكتسب شرفه وشهرته بفضل شباب الحبشة، عندما علم أنهم غاية في الضعف وموتهم من العطش أمرٌ مؤكد. لكن بالنسبة له، فهم على أي حال مجرد مرتزقة تم شراؤهم بالمال.

تدريجيا كان جيش المجندين بأكمله في حالة من الفوضى. وبدأت المجموعات في التشتت في جميع الاتجاهات دون معرفة أين تتجه. لحسن الحظ توجهت مجموعة توكوابو على طريقٍ حدث أن أخذتهم إلى مكان وجدوا فيه بئر ماء. وعندما احتشدوا للشرب اتضح أن المياه كانت عميقة. وباستخدام حبل، بدأ عدد قليل منهم في النزول إلى قاع البئر للوصول إلى الماء. وما إن وصلوا هناك حتى بدأوا يلوكون الطين ويرسلون ملء قبعاتهم منه إلى الرفاق في الأعلى للمساعدة في إخماد العطش بينما الرفاق في الأعلى ينتظرون، وفجأة اكتشف الذين كانوا تحت بئرًا مخفيًا تم إغلاق فتحته بطبقات سميكة من القماش، وتدفق الماء في اللحظة التي أزالوا فيها الغطاء. شربوا كلهم واغتسلوا وأخذوا يساعدون بعضهم البعض. كما أعطِي الماءُ لعددٍ من قادة المجندين الذين لديهم بغالٌ لسقايتها. كانت تلك المجموعة من القلائل المحظوظين الذين نجوا ويعدّون نحو ربع المجموع العام ممّن تبقوا، مع أن رحلة البحث عن الماء استغرقت ثلاثة أيام، أما الوحدات الأخرى من المجندين فقد سقط بعضها في أيدي العدو، بينما جثث الآخرين ترتمي في كل مكان. كما حالف الحظ القليل منهم في الوصول إلى بئر ما، لكنهم تصرفوا مثل الغوغاء، أو مثل الذباب الطنان الذي يسقط فوق وعاء من الحلوى، وماتوا وهم يدوسون بعضهم البعض. كان الذين ديسوا تحت الأقدام يختنقون، وحاولوا النهوض بطعن جثث الرفاق الذين يسقطون فوقهم بالسكاكين. ومع غمر أحشائهم في الدم، هلكوا جميعًا معًا، مع بطون مفتوحة لكل من القتلة والمقتولين. أوه، لقد كان مشهدًا فظيعًا لا تتمنى أن يحدث حتى لعدوك. نتمنى ألا يرى آباء بني الحبشة هذا؛ ونتمنّى ألاّ يرى كلّ من لديه قلب إنسانٍ هذا. وهكذا أصبحت نهاية الشباب الإثيوبي الشجاع. أما الإيطالي الذي قادهم وتسبب في كل ذلك، فسيهنأ بنوم مريح في وطنه. لن يحدث له شيء فكل شيء على ما يرام بالنسبة له.

يا لقسوة ذلك! وماذا حدث لأولئك المجندين الذين هربوا من هذا الجحيم؟ ما زال عليهم أن يقاتلوا للنجاة، وبدأ الليبيون بقتلهم واحدًا تلو الآخر. كان الراوي الشعبي الأفريقي يقول في إحدى ترديداته عندما نعى وفاة نيغويسي، بطلُ الحرب الحبشي الأسطوري: «واحداً تلو الآخر إلى أن صاروا أقل عددا». صحيحٌ أن المجندين الأحباش أظهروا بسالتهم، لكن لسوء حظهم كان الليبيون يأتون بأعدادٍ أكثر. وفي النهاية، دفعهم الليبيون للانسحاب إلى حافة البحر، وفي نهاية المطاف ركب المجندون الباقون على متن السفينة التي أقلعت بهم إلى وطنهم. خلال رحلة العودة، كانوا يُبدون حزنهم الشديد على رفاقهم الذين سقطوا في المعركة، وغنوا في رثائهم بحزن، «لا يذهبنّ أحد إلى طرابلس، لئلا يقطع بالسكين أو السيف الطويل.» كان الآباء والأمهات والأخوة والأخوات يتساءلون بالطبع عما حدث للمجندين خلال كل أيام الحرب في «طرابلس». فهم دائمًا في حالة خوف يذرفون الدموع، وأفكارهم منشغلة ليلًا ونهارًا بأبنائهم في الحرب، بينما هم ينتظرون عودتهم. الآباء الذين لديهم أطفال آخرون في المنزل يشعرون على الأقل بنوع من السلوان لوجودهم معهم. وكان من المحزن رؤية أبوي توكوابو في تلك الحالة، فابنهما الوحيد الذي وُلد بعد الكثير من الصلوات والوعود ذهب إلى أرض أجنبية مخاطرا بحياته لخدمة الغرباء، وتاركا وراءه والديْه المسنّين. هناك حقيقةٌ ما في القول المأثور بأنّ «قلب الشباب متضخمٌ بالفخر». إنه لأمرٌ محزن الاعتقاد أنه يمكن للمرء أن يترك مثل هؤلاء الآباء الذين لا ينشدون سوى محبتك، ولا يريدون سوى الأفضل لك، والذين يصلّون من أجل سلامتك، ويودّون لو ماتوا قبلك. بدلاً من ذلك يذهب الأبناء لخدمة هؤلاء الغرباء الذين لا يرونهم أفضل من الكلاب. سيكون من الجيّد لك لو أنك سافرت لغرض التجارة أو الخروج إلى الحقول لممارسة الصيد، أو لأيّ شيء غير ضار مثل هذا. لكن لا، الذهابُ إلى الحرب، وإلى أرض العطش والمجاعة والموت والمهانة، هذا أمرٌ غير مفهوم ببساطة. هذه ليست قصةً واحدة فقط، لكنها قصة العديد من الآباء، ولكن بما أننا نتحدث عن والديْ توكوابو، فلنرجع إليهما.

من الأسهل التفكير فيها بدلاً من محاولة وضع الكلمات عن كيف بدا الوقت طويلًا بالنسبة لتوكوابو خلال هذين العامين. كان من المؤسف رؤية مدى حزنهما وكيف تدهورت صحتهما في الأيام الأخيرة من حياتهما نتيجة لغيابه. في كل ليلة وقبل أن يأويا إلى الفراش، كانا يتوسلان إلى الله، ويرددان دعاء كيري إليسون، ويصلّيان: «يا رب، لتكن مشيئتك وتترك لنا الابن الوحيد الذي أعطيتنا إياه، وتمكّنه من العودة إلى البيت بأمان. لا تدعنا نموت قبل أن تراه أعيننا مرة أخرى.» كانت والدته تعاني من الكوابيس وتنادي اسم ابنها في نومها. وهناك أوقات يبدو فيها الحلم صحيحًا لدرجة أنها اعتقدت أنها قابلت توكوابو في الحياة الواقعية، فتمدُّ ذراعيها لمعانقته، قبل أن تستيقظ فجأة من سباتها. وبمجرد استيقاظها، لا تتمكن من العودة إلى النوم أبدًا، وتظلّ تتمتم في ألمٍ طوال الليل. كل شيء يذكّرها بابنها، وكلما رأت شابًا يمر أمامها تفكر كم سيكون من الرائع رؤية توكوابو هناك يمشي مثله. إذا سمعت الأمهاتِ يتحدثن عن أبنائهن، يقفز قلبها إليه، إلى ابنها الموجود إلى أوطان بعيدة. وإذا سمعت خوار أبقارها، شعرت بالبؤس من فكرة أنّ الوريث غائبٌ، وتفكّر في عدم جدوى حلبِها أو صنع السمن من حليبها، فالآخرون سيشربونه ويأكلونه لأن توكوابو غائب. «أوه، توكوابو! يا توكوابو،» تولولُ بأسى، «ما فائدة الحصاد إن لم يكن هناك من يأكل؟ وإن لم يكن لابني توكوابو، فما حاجتي به، إنما سيضاعف من

أحزاني؟» أصبحت مثل هذه الفورات هي محادثتها الوحيدة مع ابنها الوحيد. شعر الجيران بالأسف لرؤيتها في هذه الحالة، وصلّوا في قلوبهم أن يساعدها الله بإرجاع ابنها إليها، بينما كان الأب قلقًا بشأن الصحة العقلية لزوجته. في الواقع، لقد لاحظ أنها تقضي أحيانًا اليوم كله في استدعاء اسم ابنها، مثل شخص جُن جنونه.

ذات مرة وصلت رسالة إلى بيتهم من توكوابو. أمسكت بها وتقريبًا أرادت ابتلاع الورقة وهي تمطرها بالقبل مرارًا وتكرارًا وتضغطها على وجهها وتقرّبها من قلبها. وفي وقت آخر عندما أرسل توكوابو صورة له، ظلّت عاجزة عن الكلام ولم تعرف ماذا تفعل بها، لأنها لم تر صورة له من قبل. لقد بدا لها كلّ شيء كأنه حلم. ولم تفارقها تلك الصورة أبدًا، وكم أحبت أن تُظهرها لصديقاتها وهي تشعر بالسعادة والفخر أثناء حديثها عنه بإسهاب. مرّ الوقت وخرجت شائعة في أحد الأيام بأن المجندين سيعودون إلى الوطن. كانت الأخبار بمثابة رياحٍ قوية تثير جمر نارٍ على وشك أن ينطفئ، قبل أن تنفخ ذلك اللهب وتطفئه بقوّتها الهائلة. ذلك كيف كان الأمر بالنسبة لأمّ توكوابو. لقد نُفخت الحياةُ لفترة وجيزة في قلبها المرهق، لكن ذلك القلب الذي عصف به الفرح والإثارة (وكانت في سن الشيخوخة)، تمزق فيه أحد الشرايين وتوقف عن النبض تمامًا. خلال لحظات أسلمت الروح وهي تنادي على ابنها. سقط زوجها في أعمق حزن يُمكن تخيله. فبالإضافة إلى فقدِ ابنه، ها هو يفقد زوجته أيضًا وبقي وحيدا في فراغ المنزل. كانت الحياة صعبة على العجوز الذي كان في السنوات المتبقية من حياته بحاجة ماسة إلى الكرامة والحب، لكن بدلاً من ذلك حُرم من ابنه وزوجته. سيكون الأمر مختلفًا بالنسبة لأيّ شاب، حيث يمكن خداعه وتشجيعه من خلال الحياة الدنيوية، وهو أمرٌ يصعب القيام به لمن تقدّم في العمر بما يكفي، لمعرفة ما ينطوي عليه الغرور في هذا العالم. كيف يمكن مواساته؟ قد يعتقد المرء أنّ أخبار المجندين العائدين كان يجب أن تبعث بعض الأمل في قلب والد توكوابو، لكن أيضًا طغت عليه الأحداث التي أخذت تتكشف له. عندما سمع الخبر لأول مرة، عذّبه غياب اليقين من عدم معرفة ما إذا كان ابنه قد مات أو أنه بين الناجين من الحرب. وكما يذهبُ معنى المثل الشائع، من يستطيع أن يقول «إذا كان هناك ماء، فهناك شتاء»؟ شغل هذا الأمر باله وأقلقه كثيرا. من بإمكانه أن يؤكد أنّ توكوابو سوف ينجو من المخاطر المجهولة التي لا تنتهي لتلك لرحلة البحرية في طريق عودته إلى الوطن؟ وحتى لو عاد توكوابو بأمان، فمن المزعج حتى التفكير في كيفية إخباره بوفاة أمّه. لم يتمكن الأب من الأكل أو الشرب، كما جافاه النوم وتوقف عن الحديث إلى الناس. أمضى أيامه في البيت وهو يبكي وحيدا. الجيران كانوا من الطيبة فيأتون لزيارته من حين لآخر ويسألونه: «ماذا تريد منا أن نجلب لك من طعام وشراب؟» لكن من الصعب التعامل مع شخص مستاء من نفسه، ومن الصعب عليه أن يجد العزاء لمحنته. لذلك فضّل أن يُترك بمفرده، وقضى أيامه يفكّر في تعاسته. لقد كان في هذا العالم بجسده فقط لأنّ قلبه في عالمٍ مختلف الآن، مع زوجته وابنه. في الواقع، كان ينسي مرارا ولا يعرف أحيانا أين هو. وبفقدان رجاحة عقلهِ، لم تعد به حاجة للبصر ولا للسمع.

بعد فترة راج حديثٌ بأن المجندين وصلوا إلى ميناء مصوّع. فبعد عامين وصل المحظوظون منهم إلى الميناء ليعودوا منه إلى ديارهم. لكن لا أحد يستطيع معرفة الأفكار التي تدور في أذهانهم آنذاك. إنهم الآن في الأرض التي تاقوا إليها كثيرا. لقد رأوا سلاسل الجبال العظيمة التي كانت موضوع محادثاتهم اليومية وأحلامهم الليلية، ولم يتمكنوا من مقاومة دموعهم.

فذلك المشهد كان جزءًا من قلوبهم وأرواحهم. ومن المستحيل نسيان الوطن، حتى وإن تُرك في سلام ورخاء، ناهيك عن تركه في محنة. لقد طغى عليهم شعورٌ هائل بالفرح والشوق عندما رأوا في مصوّع الأشخاص السّمر الذين يشبهونهم وهم يحملون الأمتعة، وكانوا ينفجرون في مزيج من الضحك والبكاء في الوقت نفسه.

يمكن للمرء أن يتخيل فقط كيف كان ردّ فعلهم وتأثرهم وهم يصلون إلى أسمرا، إذا كانوا قد شعروا بالنشوة لمجرد دخولهم ميناء مصوّع، حيث بالنسبة لمعظمهم ليست هناك عائلات أو أقارب هناك لاستقبالهم. وعندما سمع الناس أن المجندين يدخلون أسمرا، تجمع في المدينة الكثير من سكان القرى من أطفال ونساء كبارا وصغارا. سافر بعضهم سيرا على الأقدام والبعض الآخر على البغال. أولئك الذين لم يعرفوا ما إذا كان أحباؤهم من بين العائدين انتظروا يلفّهم الخوف والأمل. خوفٌ لعدم معرفتهم إن كان محبوبهم قد توفي؛ والأمل في عودته سالما. لم يعرفوا موعد وصول القطار فتنقّل القرويون ذهابًا وإيابًا إلى المحطة للسؤال عن حقيقة وصولهم. كان من المحزن رؤية الأحباش من عملاء السلطة هناك، والذين كانوا يصيحون بفخر «برونتو» وهم يردّون على الهاتف باللغة الإيطالية، لكنهم ببساطة تجاهلوا أو استهزأوا بأسئلة بني وطنهم. بل جرى الأسوأ من ذلك، ففي بعض الأحيان هناك جَلدٌ وضرب ودفع. عندها أيضا ولتسجيل هذه اللحظات غنى الناس، «يا ربّنا ارفع غضبك عنا، فقد انقلب الحبشي ضد قومه». وصل القطار أخيرا إلى أسمرا بحمولته من المجندين. وقد تجمع حشد كبير من الناس في المحطة. أولئك الذين لم يعرفوا بوصوله هرعوا إلى المحطة مباشرة من البيت أو العمل حاملين الطعام والشراب. بعد أن سيّج الحراس المحطة، وكانوا مسلحين بالسياط الطويلة، ومسدسات معلقة على الفخذ الأيسر كما لو أنهم جاهزون لسدّ طريق الوصول إلى حفلة كبيرة ما ومنع الناس من الوصول إليها. فمهمتهم هي طردُ أي حبشيّ يقترب من هناك. لا شك في ذلك فتلك هي مهمتهم، والأوامر المعطاة لهم. الأحباش فقط من يجب تسويطهم ومطاردتهم. لأنهم لا يجرؤون قط على لمس أي شخص أجنبي. نعم، ومرة أخرى فالحبشيّ وحده هو الإنسان الساذج.

مع دخول القطار إلى المحطة مطلقا صافرته، أخذ المجندون يلوّحون بأوشحتهم. بعض النساء صِرن يولولن والبعض الآخر يبكين تأثرا. وغنت أخريات: «القطار يأتي مطلقا دخانه، وعينا ابنةِ أمّك تدمعان.» ثم اندفع الحشد إلى الأمام، ما أدى إلى اضطراب كبير، فبدأ الحراس في ضرب وجلدِ أيّ شخص في طريقهم. بعد فترة، خرج المجندون واصطفوا على أحد جانبي القطار وعندها انكفأ عليهم الحشد الذي بدا مثل قطيع من الغنم أو الماعز الراكض لإحضار صغاره، فيصطدمُ ويضرب أي شيء في طريقه، بينما الحِملان تئن وتقفز للعثور على أمهاتها. ساد المكان ضجيج، وفوضى، ودموع، ومناداة على الأسماء من جميع الجهات حيث يتدافع الناس للعثور على أحبائهم. بينما الذين تمّ لمّ شملهم يتعانقون ويقبّلون بعضهم، تدافع آخرون في بحث يائس عن أحبتهم. في النهاية، عندما انفصل الأشخاص الذين وجدوا أحبائهم عن الحشد، خمدت الفوضى. ولكن ليس تماما. فالأشخاص الذين مات أقاربهم ومع ذلك قرروا القدوم إلى المحطة ليعرفوا بأنفسهم من رفاقهم داخل الكتيبة، بدأوا في العويل والبكاء في حزن ظاهر، ولم يكن من الممكن مواساتهم. لقد كانت خسارتهم أكثر إيلامًا لأنهم لم يتمكنوا من المطالبة بجثث أبنائهم وأحبتهم وعدم معرفة ما إذا أكلتها الأسماك في البحر أو النسور والضباع في الصحراء، الأمر الذي دفع حزنهم أبعد من الخيال.

ذكرى معركة «سيتمو» كانت مؤلمة بشكل خاص. ففي هذا الصدد، أتذكر قصة امرأة إثيوبية فقدت شقيقها. كانت قد تركت منطقتها مع شقيقها وجاءت إلى أسمرا. وأعتقدُ أنه لم يتبق من عائلتهما سواهما. ثم انضم شقيقها إلى المجندين وقُتل في الحرب. وكانت قد علمت بذلك منذ زمن طويل. كان الحزن يعتصرها بالكامل وبدت حليقة الشعر، بعيون جوفاء من البكاء، وخدّين نديّين بالدموع، كما تيبّس جلدها وتقرّح من المحنة. أتت إلى المحطة في ثوب أسود ممزق هو كل ما تركته عليها لتظهرَ كارثة فقدها لأخيها. ظلّت تبكي بصمت عندما توقف القطار، وبعد أن نزل المجندون، بدأت تنادي على شقيقها. عندما بدأ الجميع بمغادرة المحطة مع أحبتهم، وكانت تعرف بالتأكيد أنها فقدت شقيقها، انفجرت في نحيب وصراخ بصوت عال. كان من المفجع رؤيتها في هذا الحال فقد اجتاحها الحزن وهي ترتجف مثل شخص يعاني من آلام شديدة في المعدة، وظلت تواصل أنينها في كرْب شديد. «ماذا سيقول لي قومي، فكّر بي؟ أوه يا أخي، بعد أن تركنا وطننا معًا – هل سأقدر على العودة لوحدي؟ وإن سألوني أين قُتل، فلن أتمكن من معرفة ذلك. إذا سألوني أين دُفن، فلا أعرف أين على الإطلاق. ماذا سيقولون لي؟ لقد تركتُ موطني ولا يوجد أحدٌ يمكن أن يقدم العون لي سواك يا أخي. والآن لا أعرف إلى أين أذهب. قل لي ماذا أفعل...» بينما هي تمتم بتلك الكلمات، اخترقت صرخاتها قلوب الناس مثل نصل خنجر حاد. وهذه الصرخات التي تطلقها يمكن أن تحرك حتى أصحاب القلوب المتحجرة. من ناحية أخرى فما رآه الناس ذلك اليوم لم يكن استثنائياً، واستمر حدوثه في كل مرة يصل فيها المجندون إلى محطة القطار، وبعد الهرج والمرج يعود الجميع إلى منازلهم. انتظر والد توكوابو في قريته لأنه كان طريح الفراش في ذلك الوقت، لذلك توجّه الابن مباشرة لزيارة أبيه وعندما التقيا احتضنا بعضهما لفترة طويلة جدا.

من الأسهل تخيّل ذلك بدلاً من التعبير عنه بالكلمات، ووصف مشاعرهما تجاه بعضهما البعض في ذلك الوقت، فمن الصعب التعبير عن مشاعر المحبة بالكلمات. سأل توكوابو عن والدته فقال الأبُ محاولاً إيجاد الأعذار، «إنها تزور مكاناً ما وستراها غداً...» لكن قلب توكوابو لم يجد راحة في كلمات أبيه. ففي أعماقه كان يعرف، وقال في نفسه لو كانت أمّه على قيد الحياة لانتظرته، فالجميع يعلم أن المجندين سيعودون في ذلك اليوم. أخذت دموعه تتساقط، وسرعان ما أخذ توكوابو وأبوه يجهشان في بكاء عنيف، ثم أخبره بوفاتها. وبعد أن علم أنها فارقت الحياة قبل وصوله مباشرة جعل حزنه أشد وطأة عليه. بشعور بالندم وبتشنج في معدته من الحزن، انتحب وأخذ يردد:

«ذاهبٌ إلى أرضٍ بعيدة
ليس من أجل رفعةِ وطني
تاركا عائلتي ورائي
يتألمون ويذرفون الدمع لعامين
موقنا أنني قتلت أمي سعيا وراء خيلائي
وها أنا أعود مجرجرا قدميّ

لأبيّن تفاهتي

لمن أسأت إليهم من أهلي وأحبابي

والذين أستحقُّ لعناتهم

لم أكن بحاجة لشيء، فلدي وفرة من طعام وشراب

وما أغطي به بدني

ومع ذلك تركتُ وطني، فيا لي من أحمق

لكن ها أنا أعود لأبيّن تفاهتي

دع كل من يمكنه الكلام

يصب عليّ اللعنات

كنتُ فيما مضى منعما بخيرات الرب

فلماذا وضعت نفسي في هذا الموضع؟

أمّاه، أعرفُ أن ذلك بسببي

يا أمي الحبيبة، لقد خذلتك.

وقد غرّني الشيطان

فليكن إذن... أتقبّلُ لعناتك

وأن أحرَم من عينٍ وسنّ ويدٍ

وأن أعيش عقيما كما شيطان مريد

أستحق أكثر من ذلك

دع كل اللعنات تنصبّ عليّ

ووداعا للسلاح

لقد انتهيت من إيطاليا ومِحنِها

تلك التي سلبتني من أرضي ووالديّ

انتهيتُ من التجنيد وكل الميداليات الإيطالية

وداعا السلاح!»

بعد بضعة أيام، تقدم توكوابو بطلبٍ تسريحه من الجيش الإيطالي وعاد إلى قريته. لم يعش والده لفترة طويلة بعد ذلك، واستمر موتُ أمّه يمثّل أكثر تجربة مؤلمة لفترة طويلة في حياته.

* * *